W A L I D A L S H E I K H



العجوز
يفكر بأشياء صغيرة

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
١٤٣٠/٤/٢٠١٢

٨١٣,٩
العيسة ، وليد توفيق
العجوز يفكر بأشياء صغيرة/ وليد توفيق العيسة.ـ عمّان : دار أزمنة للنشروالتوزيع، ٢٠١٢
(١٤٤) ص.
ر.ا. ١٤٣٠/ ٤/ ٢٠١٢
الواصفات : القصص العربية/ / العصر الحديث/

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

ISBN 978-9957-09-510-9 (ردمك)

العجوز يفكر بأشياء صغيرة

وليد الشيخ(كاتب من فلسطين)

الطبعة الأولى : 2012



أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس : 5522544
ص.ب: 950252 عمّان 11195
شارع الشريف ناصر بن جميل ، عمارة 55 (الدوحة) ، ط4
info@azminah.com
info@azminah.net
Website:http://www.azminah.com

لوحة الغلاف : بهرام حاجو (سوريا/ ألمانيا)
تصميم الغلاف : أزمنة (إلياس فركوح)
الترتيب والأخراج الداخلي : أزمنة (نسرين العجو ، إحسان الناطور)
الطباعة : مطابع الدار العربية للعلوم / بيروت
تاريخ الصدور : أيار/ مايو 2012

رواية

وليد الشيخ

العجوز
يفكر بأشياء صغيرة



إلى سلام،
من قبل ومن بعد

العجوز يفكر بأشياء صغيرة

-1-

عندما قفز الفأر من وعاء الترمس، كانت يده الصغيرة تناول الحاجة فاطمة تعريفة، مقابل حفنة من تلك الحبات المبللة بالماء، المنفوشة، والطرية برائحة لا يعرف حتى الآن موقفه منها.

احتار دائماً في تلك الرائحة التي تحملها الحبات الصفراء. يميل باستمرار إلى الاشتباه بأن ثمة أمراً غير حسن في تلك الرائحة البعيدة.

لكنه الآن بعد أن رأى فأراً سميناً وكسولاً يخرج من الوعاء، في حركة يبدو أن الفأر نفسه اعتاد عليها، رجفت أصابعه التي تحمل حفنة الترمس، واحتار من جديد في دوامة سؤال كبير ونتن : ما الذي عليه أن يفعله بحفنة الترمس التي في يده؟

اختلطت رائحة الحاجة فاطمة والترمس وعروق الفطريات المتشققة من المصطبة التي تجلس عليها الحاجة منذ بدء الخليقة، مع لحظة الانبثاق الأولى للحياة على هذا الكوكب.

لا يعرف المرء حتى اللحظة، إن كانت الحاجة فاطمة رأت الفأر وهو يخرج من وعاء الترمس الذي تبيعه للصغار أم لا. فهي تمسك

أجفانها دائماً في حركة اضطرارية لتضييق بؤبؤي عينيها، ربما رغبة منها في إثارة التعاطف، أو نتيجة ضعف في النظر.

بالنسبة للإحتمال الثاني لا شواهد تؤكد عليه. على العكس من ذلك، فإن بمقدور الحاجة فاطمة مناداة الأولاد الذين يتسكعون في الشارع بأسماء أمهاتهم (تعال يا ابن فلانة)، دون عناء.

بذل العجوز (كان يرى نفسه عجوزاً) جهداً عالياً وهو يفكر بتلك الأشياء الصغيرة التي حدثت منذ عشرات السنين، مطلع السبعينيات ربما، حين لم يكن عمره يتجاوز سبع سنوات. لكنه لم يتوصل لإجابات قاطعة حول قدرات الحاجة فاطمة البصرية.

كيف تتسلل الآن إلى ذاكرته صورة الفأر الكسول، الذي نزل من الوعاء بثقة من يغادر بيته ويعلم أن بمقدوره العودة إليه متى شاء، أو متى سكتت صيحات الأولاد حول وعاء الترمس وسحبت الحاجة فاطمة يدها منه.

حدث نفسه:

ـ هل يمكن أن أنسى كل شيء عن الطفولة، تقريباً، وأتذكر فأراً تافهاً قفز من وعاء الترمس؟

عند ناصية حارة الفرن تماماً، تقع دكانة الحاجة فاطمة، الحارة التي تكتظ بأولاد وبنات تلفظهم غرف ضيقة ومتلاصقة، لا تتسع لكل هذا العدد من الصغار الذي يتدفق من بطون النساء بشكل دائم، فيكون الحل الأمثل للجميع بمجرد قدرة الطفل على المشي، أن يذهب

للتسكع في الشارع.

تحايل خلّاق للتخلص من الضغط، يشبه زراعة أشجار التوت عند حواف الحفر الامتصاصية، لتسحب جذور الشجرة ما تستطيعه من أوساخ ومياه عادمة، وتوفر في المقابل حبات توت للأولاد والبنات (كتعويض مناسب عن الفاكهة)، تلك الحبات التي كلما مصها تخيلها حلمات غامقة وعفية.

وكلما تذكر العجوز هذه الأشياء الصغيرة التي شغلت طفولته يصبح شفافاً وتأملياً، كأنه شخص آخر، لا يشبه هذا الرجل الهرم الذي يتمشى على جسر مهترئ ويفكر بأشياء صغيرة، صغيرة.

الكهرباء لم تكن قد أضاءت المخيم بعد، لذا فإن انتشار حفر لوضع أعمدة الكهرباء الخشبية ذات اللون البني المصلي بنار حامية، يعد حدثاً تاريخياً أنشأ نظام حياة جديدة، وعلاقات جديدة، بين سكانه من اللاجئين، الذين قدموا من قرى ومدن فلسطين عام 1948، قرى صغيرة وآمنة كانت تلتحف تلال ما بعد الساحل الفلسطيني. فلاحون خرجوا من الاحتلال العثماني إلى قبضة الاحتلال الانجليزي، إلى هجمات العصابات الصهيونية. كانوا مؤمنين بما يشبه يقيناً محققاً أن وراءهم شعوباً عربية وإسلامية ستنتصر لهم وتعيدهم إلى ديارهم مكرمين معززين. انتظروا طويلاً، لكن العصابات التي أخذت قراهم ومدنهم لحقت بهم عام 1967 إلى الضفة الغربية، لتصبح مخيماتهم أيضاً تحت احتلال عسكري جديد.

حملوا معهم أيضاً قصصاً عن القرى التي تركوها خلفهم، واستعانوا بها في الليل ليحدثوا صغارهم عن أيام أقل بؤساً، عن أشياء تشبه الخيال بالنسبة للصغار الذين يتحلقون كل ليلة لسماع الجدات وهن يستعدن ذكريات الصبا في «زكريا»، وسيتذكر طوال حياته عندما قالت له جدته أن ولداً في زكريا كان ينتظر بنات البلد الذاهبات لـ «البير التحتاني» حتى يجلسن تحت شجرة خروب في طريق العودة، يقف قبالتهن على مسافة تسمح لهن برؤيته وعندما يذهبن يركض إلى مكان جلوسهن «ليتفعفل في التراب الحار الذي أدفأته مؤخرات العذارى». تضحك الجدة كلما تذكرت ذلك. تضحك وكأنها ترى الولد ـ الذي رفضت أن تفصح عن اسمه ـ أمامها الآن.

صار الليل أقل عتمة في المخيم، واشترت الكهرباء وقتاً اضافياً للناس حتى يتفكروا لفترة أطول فيما ينتظرهم صباح الغد. كما يمكن الإشارة هنا إلى أن الكهرباء تعني التلفزيون، الذي تجمع أهل الحارة حوله في تشرين ثاني عام 1977 لمشاهدة أنور السادات في زيارة إسرائيل، ولم يكن يدرك سبب كل هذا اللغط من كبار السن واهتمامهم البالغ بهذا الأمر.

امتدت تعليقات الكبار حتى ساعات متأخرة من الليل. حتى أن العجوز لغاية الآن يتذكر لحظات الرهبة والدهشة، والعيون التي اتسعت حتى كادت أن تخرج من أمكنتها في وجوه الرجال الملتفين حول التلفزيون، وصمتهم المفاجيء والمريب، وتحفزهم كلما قال الرجل الزائر جملة من خطابه أمام الكنيست؛ لكن أكثر ما يتذكره الآن

فوق الجسر هو الانكسار الذي حمله الناس الذين تفرقوا إلى بيوتهم بعد الخطاب. هزيمة من نوع خاص، كأنّ أخاً كبيراً مات أو سقفاً عالياً سقط عليهم فجأة.

يتذكر العجوز الآن انه اثناء دراسته الجامعية قرأ الخطاب كاملاً، وظل يبتسم ـ مع مريم التي أصغت له ـ لمدة اسبوع على أقل تقدير، كلما تذكر بداية الخطاب الذي بدأه بـ(السلام عليكم ورحمة الله، والسلام لنا جميعاً، بإذن الله.)، وقد أحال الرجل الأمر لله مرة أخرى في نهاية الخطاب:

(وأستلهم آيات الله ـ العزيز الحكيم ـ حين قال: ﴿قُلْ آمنَّا بالله ومَا أُنزلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزلَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وإسْحَقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ وَمَا أُوتيَ مُوسَى وَعِيسَى والنَّبِيُّونَ مِن رَّبِهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون﴾صدق الله العظيم. والسلام عليكم).

إلا أن ما يشغل باله الآن (كلما تذكر الولد الذي كانه، حاملاً حفنة ترمس في كف يده الصغيرة، مرتبكاً أمام رائحة الحاجة فاطمة وفأرها الكسول المبتل الذي أثار قشعريرة في جسده) ما الذي فعله بعد ذلك؟

بعد جهد ومحاولات حقيقية في إعادة الزمن إلى الخلف أقر أنه لا يتذكر.

كل ما يدركه أن فأراً ورائحة بعيدة وكفاً صغيرة تحمل حبات صفراء، تجمدت كلها لينقطع الزمن، وتكون لقطة ثابتة حملها منذ مطلع السبعينيات حتى الآن.

- 2 -

لو قيض له الآن، أن يعيد ترتيب الذكريات، حسب تسلسلها الزمني، لما نجح في ذلك، لسبب بسيط، أنه لم يتعرف على شخصيته بالشكل المطلوب. شخصيته كانت تتشكل وتتفكك، وتعيد تركيب نفسها في مختلف مراحل حياته. لا فواصل واضحة بين الطفولة والشباب. كانت تتنازعه مشاعر لا علاقة لها بالزمن، بل بالمكان.

كل إنسان يرى أن حياته تعد حكاية لا بد أن تروى. حتى الذين لا تتجاوز أعمارهم خمس عشرة سنة، يؤمنون أنهم عاشوا كثيراً مما يستحق أن يروى. وعي ذلك أربكه. أربكه لدرجة أنه كان يمزق كل ما يكتبه، رغم ظنه انه جزء من حياته، وجب تسجيله كوثيقة تاريخية تستحق القراءة.

في حقيقة الأمر، لا شيء يستحق القراءة. ربما الأشياء تستحق أن تعاش لا أن تكتب أو تقرأ. قد يكون خطأه الوحيد، أو القاتل، أنه عاش حياة كاملة بانتظار أن يكتبها، ولم يؤد ذلك إلى أي شيء. بالعكس، كانت تستغلق عليه أبسط التركيبات الاجتماعية، ويقف عاجزاً حتى أمام البنت التي تجلس على كرسي دوار، عند مخرج السوبر ماركت، لتحاسب الناس على البضائع التي اشتروها.

كاد أن يصبح عبئاً اجتماعياً دون أن ينتبه. إلا أن سيرة حياته، المليئة بالناس، حرمته متعة أن يصبح معزولاً بالكامل. دائماً ثمة من يتصل به، أو يلتقيه، أو يبادله حديثاً ما.

يشبه أن تكون مؤامرة كونية، حرمته من أن يعيش حياته في عزلة تامة، كما تمنى دائماً.

أحاطه والده ووالدته بعدد هائل من الأخوة والأخوات. الخالات أنجبن أيضاً بكثرة. الأعمام كذلك. نساء حارة الفرن كن ولودات بشغف نادر. المخيم مشغول في مهمتين عظيمتين: تشكيل خلايا يسارية وتكبير صور ماركس ولينين وانجلز وتعليقها على الحيطان، والمهمة الثانية إنجاب أكبر عدد من الأولاد والبنات في وقت قياسي.

باختصار، بقصد أو دون قصد، لم يقيض له أن يعيش وحيداً. بالنسبة للبعض هذا شيء رائع ويستحق الحمد والشكر الدائمين لله الذي أنعم عليه بحياة مليئة بالناس. أما بالنسبة له، كما خطر له أثناء مشيه الهادئ على الجسر المهترئ كي يفكر بأشيائه الصغيرة، كان هذا كارثة ألمّت به ولا مناص له منها.

-3-

يقف الآن، منذ ساعات طويلة، في يوم من مساءات خريف عام 2011 ، على جسر مهترئ لا يطل على شيء ، ليعيد تفكيره فيما عاشه من لحظات لا تنسى.

أن يبدأ الإنسان باستعادة الشريط من جديد يعني أنه وصل نهاية ما، ويريد الإطلالة إلى الخلف، كي يعدل أو يرتب أو يعيد تشكيل ما مضى. وهو هنا العجوز الذي مسَّه حنين جارف إلى يومياته الأولى، في

سيرة جنسية تعد ثروته الخاصة، وغناه الوحيد، إلا أنه لا يستطيع أن يورثه لأحد، ولا حتى أن يسرده أمام الناس، خوفاً من نص في قانون العقوبات الساري المفعول والذي سيعتبر تصرفه هذا يستوجب عقاباً.

إلا أن تفكيره حر. ويستطيع ببساطة أن يطل على سيرته الجنسية وهو يتهدل في مشيته، دون أن يشك أحد من رجال الأمن بما يدور في خلده. هذا ما يستحق الله أن يحمد عليه.

الإنسان يفكر في ما يريد، حتى ولو كانت كل قواعد الأرض العسكرية وتراساناتها النووية، وأجهزة أمنها، تمنع البوح بما يفكر به، لكن لا تستطيع أن تمنعه من التفكير، على الأقل.

حين وصلته الرسالة على صندوق البريد، وهو موضة قديمة لم يعد أحد بحاجة إليها، إلا أنه أصر على أن يبقي صندوق بريده موجوداً، لأنه يتذكر أنها سجلته على كتاب قديم حملته في حقيبتها. حين وصلته الرسالة ورأى خط اليد الذي يعرفه جيداً (غسان نصار ـ بيت لحم ـ الضفة الغربية ـ فلسطين صندوق بريد 735)، بانكساراته وصبيانيته وأوهامه، شعر أن الحياة تستحق أن تعاش، ولو من أجل رسالة تنتظر في صندوق البريد.

لا يفتح رسائله في الشارع. فعل كهذا يفقد الخصوصية رائحتها. عاد إلى شقته ليشرب الشاي، ويؤجل فتح الرسالة حتى تزول وحشة ساعات ما قبل العتمة. كان ينتظر أن يهبط الليل غزيراً كمطر آسيوي. ينتظر أن يمتلك عتمة كاملة تلف الكون، ليصل إلى أقرب درجة

من الشعور بالعزلة التامة، بعيداً عن أنفاس الناس وضجيج سياراتهم وصراخ الأمهات الأزلي على الأولاد الذين يلعبون في الشوارع، عن صوت الباعة، عن تلصص الجارات على الشبابيك وعن نشرات الأخبار.

«غسان..

أريد أن أخبرك أني حصلت على الجنسية الكندية، وسأبقى هنا، لأن العودة إلى بلاد العرب تعني ببساطة أني ساذجة. أعرف أن هذا لم يعد يؤثر فيك، على الأقل ليس كثيراً. أتمنى لك حياة هانئة».

تذكر لهاثها المحموم، حين أخذها على طرف الشارع، هناك، خلف السكن الجامعي، عند المدخل الشمالي للغابة الصغيرة، وحبات الثلج الناعسة تهطل على ظهره.

تذكر المرة الأولى التي رآها فيها على مدخل كلية الآداب. كانا يدخلان الباب معاً، صدفة، كأي حادث عابر، كأمر تقليدي في قصص الحب. تلامس الكتفان لحظة الدخول، واعتذرا لبعضهما وواصلا المشي داخل الممر المؤدي إلى قاعة المحاضرات رقم 2 على الطابق الثاني، في الساعة الثانية ظهراً بتوقيت ساعة الساحة الحمراء في موسكو.

ليس ثمة من شيء يلفت الإنتباه في البنت، حين تكون بين مجموعة من الناس، لكنها حين تتقد في غرفته، تصبح مجموعة نساء ذائبات ومسكوبات في جسد مريم. كل ما لاحظه في البداية، بنطلون جينز مشدود دون ابتذال يذكر، وبلوزة زرقاء كسماء ربيع، فيها تلوح ذنبة فرس على ظهرها.

تبادلا كلمات بالروسية، لكن اللكنة وشت بأنها عربية. سألها بالروسية من جديد، السؤال الذي يتردد الآف المرات في جامعة غالبية طلابها من الأجانب، وتحمل اسماً يدل على ذلك «جامعة الصداقة بين الشعوب»: من أين..؟

ـ لبنان!

لم ينتبها أنهما خرجا مباشرة بعد المحاضرة ليشربا القهوة سوية في الكافيتيريا، دون أي ترتيب مسبق، دون قصد، وكأنّ نداءً خفياً قادهما لأن يبتسما ويبدآ حديثاً عن أهمية القهوة في تفعيل وتنشيط الذهن.

-4-

سنوات طويلة مرت عليهما بعد ذلك، عاشا فيها عذابات حارقة، وليال من أرق ساهر على صوت موسيقى شعوب بدائية تجيء من نوافذ غرف الطلبة، وكاسيت «كيفك انت»، وقبلات كثيرة على طرف نهر موسكو في الليالي البيض.

الرسالة لا تحتاج إلى تأويل. واضحة مثل حكم إعدام:

«أريد أن أخبرك أني حصلت على الجنسية الكندية، وسأبقى هناك، لأن العودة إلى بلاد العرب تعني ببساطة أني ساذجة. أعرف أن هذا لم يعد يؤثر فيك، على الأقل ليس كثيراً. أتمنى لك حياة هانئة».

أمنيتها بأن يعيش حياة هانئة، أكثر ما استوقفه؛ بداية شعر باستفزاز، ثم أدرك أن في ثنايا هذه الكلمات القليلة «الأمنية والحياة والهناءة» ما

يشير إلى أنها تعرف أنه لن يعيش حياة هانئة، وأن الحياة دونها لا يمكن أن تكون هانئة وهي تدرك ذلك.

لا هناء له دونها.

في صباحات كثيرة، تحمل سخان الشاي من سكن الطالبات إلى غرفته، تدخل فيما يمارس كسله الصباحي، وبعد محاولة فاشلة في إيقاظه ، تدخل معه في السرير لتأخذ خمس دقائق نوم فقط، وما أن تستشعر الدفء ويسري الدم في العروق، يذهبان في عالم اللذة الصباحي، لا يعرف انتصارات باهرة، ولا يريد أن يتذكر الآن أن راية النصر الوحيدة تمثلت في تلك الانتصابات المتكررة كلما اندست مريم الى جانبه في السرير .

ليس حسناً الآن أن يتذكر ذلك، سيما وأنه سطر آخر صفحات المجد في ذلك الكتاب الذي يكاد أن ينهي آخر مهامه، لكنه لا يستطيع إلا أن يذكر محاسنه ومواقفه المشرفة، وعدم خيانته أو تراجعه أمام نساء العالم.

ليس من أجل هذا يتذكر مريم.

مريم مختلفة، ما يشده إليها ليست ذكريات الشبق والهوس الجنسي والفنتازيا الموجعة ووحشية الأخذ والعطاء بينهما. لا، هي مختلفة، حتى أنه لا يعرف بالضبط ما عنت له طوال خمس سنوات، هطل خلالها لعابها في فمه، وماؤها بلل جسده وارتوت مساماتها من عرق لا رائحة له سوى لذاذة وجع الوصل، وحرب الاكتشاف حتى النهاية.

لم تصل له، ولم يصل إليها.

لذا خاض جسداهما عراكاً محتدماً للوصول إلى لحظة الكشف السرية، حتى يطمئن بال الشهوة، وتخفت موجات الجنون الجنسية. لا فائدة.

إذن مريم خارج الهزائم والإنتصارات.

خمس سنوات غير مفهومة، يحتاج حياة أخرى، بترتيب جديد، ليضعها في مكان صحيح. لكن ألم تكن في مكانها الصحيح بالفعل؟ ألم تأت إليه بعد العودة من الساحة الحمراء، يوم السابع من تشرين ثاني 1989، لتلوح بأصابعها المقاتلة أمامه، شارحة خوفها من سقوط المسلمات والمباديء، من على جدار الكرملين إلى سيل المياه العادمة الذاهب للنهر.

هل يخطر في بالها الآن، وهي تتمشى في شوارع مونتريال، كيف بكت لأن الشيوعية ليست «أقوى من الموت وأعلى من أعواد المشانق» كما تعلمت من يوليوس فوتشيك؟

جلسا أمام التلفزيون في الثالث من أكتوبر عام 1993 حين كان الكسندر روتسكوي ورسلان حسبولاتوف في البرلمان الروسي يصرخان ضد يلتسين، فيما أسرعت ميليشيات شيوعية لتحرير التلفزيون، باعتباره أداة يلتسين التي تحرض الناس، عشرات الآلاف من الغاضبين تدور وسط موسكو، وتحيط بمبنى البلدية، مجموعات صغيرة كانت تغني النشيد الأممي الذي كتبه أجين بوتييه عام 1871 من أجل

الكومونة، قبل الانقضاض عليها.

تلك الليلة وصباحها شهدا ما يشبه بروفة الحرب الأهلية.

إلقاء القبض على فيكتور أنبيلوف هو أكثر ما آلمه. كان الرجل الثوري يهب ذلك المساء لتحرير موسكو من قبضة اللصوص حسب معتقداته، لكن تهمته الرسمية كانت «منظم للشغب الجماهيري بموسكو أيام 3 و4 تشرين أول 1993».

كان يرى فيكتور أنبيلوف في كافيتيريا جامعة الصداقة بين الشعوب، يفتش عن الفلسطينيين ليعلن تضامنه معهم، وليتحالف مع طلاب صغار في العشرينات من عمرهم لبناء الشيوعية العالمية. وحين ألقي القبض عليه أدخلت السلطات مصوراً تلفزيونياً مع قوات الأمن، حيث كان الرجل يرتدي ملابس مهترئة وحذاءً ممزقاً. حاول إخفاء حذائه إلا أن الكاميرا كانت أسرع منه بكثير.

لم يفهما ما حدث، لكنهما أدركا أن الشيوعية في روسيا ذهبت إلى نهايتها المحتومة، منذ سنتين على الأقل.

إذن قد تكون هزيمته أيضاً، حين أدرك أن كل ما آمن به، وكل تلك العلاقة العاطفية مع الإتحاد السوفييتي ذهبت إلى الأبد، لم يتبق منها إلا قطع ناستالجيا، تسقط من بين يديه من حين لآخر.

حين دخل موسكو كانت عاصمة إتحاد الجمهوريات السوفيتية الإشتراكية. وحين غادرها لم تكن أكثر من عاصمة روسيا، بلا أسرار، ودون اجتماعات، ولم تكن الراية الحمراء بالمنجل والشاكوش ترف في

أي مكان منها.

هي الآن في مونتريال، تتمنى له حياة هانئة. يعني باختصار تتمنى له حباً جديداً، وبيتاً وسيارة، وراتباً جيداً، مثلاً؟

قال لها وهما عائدان مشياً من محطة مترو يونيفيرسيتيت إلى مبنى الجامعة: مش عارف شو يعني العيشة الهنية..؟ شو يعني..؟

ـ حب، وبيت وسيارة وراتب! مو هيك..؟

قالت وهي تضحك من محاولاته الدائمة لإعادة الأسئلة كلها من أولها.

ـ ليش بتضحكي؟ لازم نعيد كل الأسئلة من الأول، لأنه زمان كانت الإجابات كلها موجودة عند الحزب. الآن لا مجيب لنا سوى أنفسنا. خلينا نسأل عن كل شي من أول وجديد.

أياماً طويلة بعد ذلك، تبادلا أسئلة أولية، حسب اتفاقهما. جزء كبير منها صار جدياً ومحزناً. أسئلة بدأت كلعبة وتحولت مع الوقت إلى استجوابات وجولات تحقيق قاسية ومؤلمة، تركت أثراً جارحاً في نفسيهما.

ـ «ليه تركتوا بعضكن أنت واليزابيل بالعامية، وبعدين سؤال بالفصحى لماذا ترتدي تلك البنت حتى الآن كوفية فلسطينية؟» سألته.

ـ شو ذكرك فيها، بعدين هذا موضوع انتهى يا مريم وما بحب أحكي عنه.

ـ «لماذا تحبني؟» سألته.

ـ «لا أعرف إن كان ما نعيشه الآن هو الحب، لا أدري». أجاب.

ـ لا تدري إن كنت تحبني أم لا؟ أم لا تدري ماذا يعني الحب؟

ـ لا أدري.

ـ لا تدري ماذا؟

ـ ما رأيك أن نوقف الأسئلة. بت أشعر أن أسئلتك غير بريئة.

أجاب، وأرفق ذلك بضحكة انتزعها من أقبية خوف وحزن مغلقة، وبعيدة.

ثارت عليه، وارتفع صوتها. قالت أشياء كثيرة نسيها العجوز الآن، لكنه لم يكن يتخيل، أنها ستتوقف تحت أشجار التفاح القريبة من مبنى الجامعة، وتعود إلى محطة المترو فيما بقي هو بكامل بلاهته ينظر اليها آملاً أن تعود.

لم تعد. ذهبت إلى سكنها، وصعد هو إلى غرفته على الطابق السادس عشر. فتح النافذة، وبعد دقيقة واحدة فقط، سقطت ندف الثلج الأولى من شتاء عام 1994.

-5-

لم يتخيل بعد أن أغنية ميخائيل شوفيتينسكي ستلازمه لسنوات طويلة. كتب كلماتها على ظهر أحد كتب الدراسة، وأشترى كاسيت (صار الآن قديماً) ينظر إليه بعد أن فتح الرسالة التي وصلته من مونتريال، سمع تلك الأغنية مع مريم مئات المرات. اليوم مناسب كي يفتح نافذة

تجاه الشمال. وضع الكاسيت وجاء صوت ميخائيل شوفتينسكي:

ورقة صفراء تدور في شوارع موسكو

في يوم الوداع

في الثالث من سبتمبر

عندما تهب النار في الوعود

وحيداً أكون ذلك اليوم!!

فكر أن اليوم يصلح ليطلق عليه اسم: يوم رسالة مونتريال.

في البداية، حين جلس معها في الكافيتيريا ليشربا القهوة، لم يلحظ أن بنيتها قوية، وللدقة رشيقة، جسد مفتون بسلامة بنيانه، من غير تشدد، لكنه استطاع دون كثير عناء، أن يفهم مباشرة أن فمها شهي ومؤلم، وأن لسانها الفالت مخبوز وجاهز في فرن اللذة، يطل على فمها ليرى كيف يتشكل الكلام العادي بين سياط الرغبات ولعاب ماء السكر، وصياح بيت الأنثى الذي كاد أن يبين.

ـ «عليَّ أن اذهب، الآن! عندي شوية شغلات لازم أعملها». قال.

ـ «أوكيه باي باي».

قالت، وظلت مكانها تواصل شرب القهوة.

وحين ابتعد ثلاث خطوات عنها، شتم نفسه كما لم يفعل من قبل، لماذا كل هذا الهبل، لا شيء يفعله، ولا يعرف أي سبب وجيه جعله يتخذ قراراً غبياً ومضحكاً ويترك جسد الآلهة الإغريقية مع القهوة وحيداً.

ـ «أنا بالتاكيد مريض نفسياً». قال لنفسه، وواصل المشي متجهاً إلى سكن الجامعة.

كاد ينزل عن الجسر المهترئ حينما فطن أن هذا ما حدث قبل أكثر من عشرين عاماً، وأن مريم منذ سنوات طويلة تعيش في مونتريال بكندا، وأن الرسالة لم تصله اليوم، وأنه سمع لآخر مرة شوفوتينسكي قبل عشر سنوات على الأقل.

الأصدقاء

-1-

كلما يبدأ سليم الناسك بالحديث، تتخيل هجوماً برياً، عليك أن تستسلم أمامه دون جدل طويل.

لا يعرف غسان بالضبط تحديد علاقته مع سليم، ما يعرفه أنهما لا يستطيعان الفكاك من بعضهما منذ سنوات الطفولة الأولى، سليم بصخبه وجلبته وجسارته، وغسان بتوجسه وهدوئه، يلتقيان دائماً، يذهبان يوم الجمعة إلى الجبل خلف المخيم، يجلسان ساعات طويلة على حواف برك سليمان، يمران على الجبل الأخضر خلف قرية أرطاس، ينهبان النهار في أحاديث وتخيلات ومسابقات.

وفي سنوات المراهقة، في العطل الصيفية، يعملان معاً، دائماً كان سليم صاحب المبادرة، يتفق على الأجرة، ومكان العمل، ويمر ليصطحب غسان معه.

قبل سفر غسان إلى موسكو، بعد التوجيهي، صارا يقضيان وقتاً أكثر هدوءاً، يجلسان مساءً، على المصطبة المفتوحة في بيت سليم، يسهب سليم في شرح تفاصيل حميمة عن أمل، عن حبه لها، عن الوله الذي يستبد به

كلما مرت أمامه، عن جسدها الطازج، وفمها الحلو.

شفتاها المكتنزتان بالشهوات، حلمتاها الواقفتان المتوثبتان كمنارتين ترشد السائلين إلى الأمان.

وحدثه عن ولعها بنبتة قرن الغزال.

التقى بها سليم أمام باب المدرسة الثانوية، حين رافق أحد أبناء عمومته لمقابلة خطيبته، طلب سليم منه أن يعرفه على البنت التي تقف مع خطيبته، أقسم له إن عرفه عليها لن ينسى صنيعه إلى الأبد، ساروا جميعاً سوية، إلى محطة الباصات، لاحظ سليم أن أمل ترتج بأنوثتها الطاغية، بهذا العبء الهائل من الفتنة التي ترافقها، تنز ملابسها ورفيف منديلها بالرغبات الفائرة لبنت نضج جسدها قبل أوانه بسنوات. جسد متطلب، مشدود، وتفيح تحت ثيابها نداءات حارقة.

سليم لم يتوقع كل هذا، لم يتخيل أن بمقدوره أن يرافق أنثى كاملة، أقصى ما تخيله ملامسة جسد البنت، وإحضار ضمة من قرن الغزال كان بمقدوره الحصول عليها من خلف بيتهم، حيث تنبت هناك بين صخور ظلت على حالها منذ أن سكن أهله المخيم، ثم الهرب ولا شيء أكثر.

ـ إسمع هاي البنت ذبحتني، ما بلحق عليها، البنت ذايبة على الآخر، مهووسة بالسكس، بتموت في الدعك وبتشبعش، جننتني، كل ما أروح أوصلها بتطلب مني أدبر مكان، وكل ما أدبر مكان بنقعد ساعتين مثل النار، أنا مش مصدق حالي، أكيد رايح يصير إشي، لأنه هيك شغلة مش ممكن تكون عادية. بنت وتطلع مهووسة متلي وبتموت في الملامسات

واللحس والمص وكل شي، شو أعمل شو أسوي دخيلك احكيلي؟

كان قد سرد كل ذلك منذ سنوات طويلة حين كانا يجلسان على المصطبة، لم يعرف غسان أي جواب ينتظر صديقه منه، بصراحة كانوا أولاداً، وأمل أكبر منهما بأنوثتها، أكبر من ذكورة عاجلة تقضي غرضها في ثلاثين ثانية وتموت.

يذكر سليم أنها طلبت منه أن يدخل عضوه فيها، لكنه ارتجف من الخوف، قالت له: ما تقلق أنا هيك بدي!!

لم يفعل الولد ذلك، ولن يفعل ذلك أبداً، لأن حادث سير غبي أنهى حياته في لحظات، وتركها لمصير مفتوح، مصير ستملأه الذكريات وتعطل عليها أفراحاً كثيرة.

قرر بشكل واع أن لا يذهب لزيارة قبره، أن لا يذهب ولا مرة، يريد أن يبقى سليم في باله ولداً شغوفاً وعنيداً، يحب الدجاج المقلي، ويبحث لهما عن عمل في العطل الصيفية، ويحب أمل، ويفكر بشكل جدي في تقديم طلب انتساب للحزب الشيوعي الفلسطيني، ببساطة لأنهم كما يقول «شوية غريبين».

-2-

وافقت مديرية وزارة الشؤون الاجتماعية في بيت لحم على الطلب الذي تقدم به للعمل، لكن لم يبدأ العمل فوراً، بقي في البيت شهران بانتظار الرد على طلبه، وعندما التحق في المديرية جلس مدة ثلاثة أشهر

أخرى حتى بدأ يتلقى راتبه، يذهب صباحاً مشياً على الأقدام من بيته إلى العمل، يجلس في مكتبه برفقة زميل آخر، موظف يتحدث باستمرار ودون انقطاع عن شكه في المواطنين الذين يطلبون تسجيلهم كحالات اجتماعية تستحق المساعدة، يستمع غسان مكرهاً إلى كل ذلك، وليس من حيلة ممكنة لإيقاف هذا التدفق من المعلومات عن حياة الناس الخاصة، التي يفتش عليها زميله ليس باعتبارها جزءاً من عمله، وإنما رغبة منه في الانتقام من المواطنين المحتاجين الذين يريدون أن يستفيدوا حسب رأيه دون وجه حق.

وكأعطية إلهية، ودون أسباب موجبة، نُقل زميله إلى مكتب آخر في قسم التفتيش، بقي وحيداً في المكتب. شكر الرب صباح مساء على هذه الهبة النادرة في المديريات.

في الطريق إلى المكتب يسأل نفسه يومياً سؤالاً ظل يتدلى أمامه:

ـ ماذا أفعل في مديرية وزارة الشؤون الاجتماعية؟

وجوابه الوحيد يأتي مع نهاية كل شهر: حتى أتلقى راتباً شهرياً.

فيسكت الأسبوع الأول من كل شهر، ثم يعود السؤال يلح عليه من جديد.

لو عاش سليم حتى الآن، لا يمكن له أن يقبل العمل في وزارة أو بلدية، سيعمل بالتأكيد في الهواء الطلق، ربما لو عاش لاستلم عملاً في نقابات العمال، أو صار متفرغاً في مكتب الحزب.

«أعمل موظفاً في وزارة الشؤون الاجتماعية من الساعة الثامنة

صباحاً حتى الثانية والنصف ظهراً»، كتب على نصف ورقة هذا السطر ووضعها في ظرف بريدي، وقرر إرسالها إلى مريم.

لكنه لم يفعل. أراد أن يبكي، لكنه لم يستطع ذلك أيضاً.

ستمر سنوات طويلة قبل أن يتلقى رسالة جديدة من مريم، تسأله فيها عن الأحوال، لكن باقتضاب، تشبه رسائل تهاني الأعياد، إلا أن الفارق الوحيد أنها خطت في النهاية سطراً مشاكساً:

«قال عم بيقولوا صار عندك اولاد!!»

مرة، أثناء الإحتفال بعيد العمال في الساحة الحمراء وفي طريق العودة مشياً باتجاه تلال لينين قرب جامعة لومونوسفا، غنت له «كيفك أنت؟»، وسألته مستعيرة لهجته الفلسطينية: لو معك بنت روسية مش ممكن تغنيلك كيفك أنت، صح؟

عندما رفع رأسه رأى سيدة مع أربعة أطفال، ثلاث بنات وولد تحمله على صدرها، ترتدي جلباباً طويلاً أسود ومنديلاً أبيض، ناصع البياض. عينان واسعتان ومطفئتان، تمد له ورقة تدل على أن أياد كثيرة تناولتها قبله، عليها تفاصيل شخصية، الاسم والميلاد ومكان السكن والحالة الاجتماعية، إلا أن ما لفت أنتباهه مكان السكن «دير بادي».

ـ الورقة بدها توقيعك يا أستاذ علشان أبعثها للدائرة الثانية!

وسكتت، ولم يرفع عينيه تجاهها.

كان طوال حياته يتذكر صفات المرأة التي أسهب سليم في وصفها أياماً طويلة، هي الآن أمامه، مع أطفال، ومأساة ربما، قادتها إلى التسجيل

في مديرية الشؤون، لا شيء يوحي أنها ذات البنت الشهية والمتطلبة، وقد صارت سيدة الآن، تطلب معونة شهرية.

أياماً طويلة قضتها أمل في السرير، أكثر من شهر وهي في حالة حمّى، كادت أن تموت حرقة على سليم حين علمت بالحادث، لا تستطيع أن تذهب إلى عزائه، ولا أن تطمئن على دفء قبره، وما من كائن يستطيع أن يواسيها. وببساطة لم يعرف أحد سبب ذهاب البنت في نوبة الحمّى، وكلما تذكرت لحظاتها الحميمة تصرخ بألم لا يغادر صدرها.

في نهاية الأسابيع التالية صارت تنام ساعات طويلة، أحياناً ثمانية عشرة ساعة يومياً، تستيقظ لتتناول ما يسد الرمق وتشرب كأس شاي، وتعود إلى سريرها. وفي غرفة مجاورة يدور نقاش بين إخوتها، ظنوا أن البنت مريضة نفسياً، وربما ستزداد حالتها سوءاً، لا بد من عرضها على طبيب.

ـ لا يمكن، أن نأخذ أمل على دكتور مجانين، حرام عليكم، هاي أختنا الصغيرة، خلينا نستنى شوي.

وحين سمعتهم أمل، في لحظة صحو عابرة، خرجت عليهم، تائهة:

ـ مسا الخير، تزعلوش مني، أنا بس تعبانة شوي وأكيد رح أكون أحسن.

احتفلت العائلة تلك الليلة، حلف أخوها بالطلاق من زوجته، أنه سيذهب ليحضر كنافة لها وستأكلها. ابتسمت أخيراً، وكانت الظلمة تسدل خيوطها على قبر سليم في ليلته الاربعين.

حاجة قديمة تلح عليه أن ينظر إليها مرة أخرى، أن يرى فيها وَلَه صديقه، بصمات يديه، ولعه الحار، أن يرى شفتيها التي أكلت من سليم ساحات وهضاب، لم يجرؤ على ذلك، وقّع الورقة، وقال كلمة واحدة: بالسلامة. وخرجت.

تخيلها تشبه «سكارليت يوهانسون»، لكن نسختها السمراء. إطمأن إلى ذلك.

حين غادر المكتب مشياً في ذلك اليوم كعادته، فكر من جديد بتغيير وظيفته، لا يمكن أن يبقى في مديرية الشؤون الاجتماعية طوال حياته من الثامنة صباحاً وحتى الثانية والنصف!!

يخاف كلما تخيل أن هذا هو ما يسمونه قدراً، وأن عليه أن يقر بأن بقية حياته ستمضي على هذا النحو، لكنه لا يقر بذلك.

في فترات متباعدة، يذهب إلى رام الله لزيارة محمد بعد سلسلة اتصالات هاتفية وعتاب. وكعادته، يحمل زجاجة نبيذ كريمزان، ملفوفة في ورق وباكيت أسود اللون (من باب عدم خدش الحياء العام)، ويتصل كي يمر محمد على (كان باتا زمان) لاصطحابه.

يجلسان نصف ساعة يحتسيان القهوة، ويدخنان، فيما تلف المدينة هواجس من اجتياح وشيك، يصر محمد على شراء مستلزمات منع التجول.

ـ أشم رائحة منع تجول، نذهب إلى الشقة الآن، وهناك ترتاح، وسأعود في وقت لاحق ليلاً.

بدأت ساعات المساء شديدة، وهبطت حلكة مفاجئة على المدينة، كان آذار يجر أيامه الأخيرة من عام 2002، وفي شقة محمد التي تطل على واد طويل، تتوالى الأخبار والتصريحات:

ـ اسمعْ ما تترك الشقة تحت أي ظرف، يبدو الليلة في اجتياح، هيك كل التصريحات بتقول.

قال محمد ووعد بأن يعود مبكراً.

في الساعة الثانية من صباح يوم الجمعة 29 آذار 2002 اجتاحت الدبابات مدينة رام الله، صارت الرشاشات والقذائف تغطي المدينة برائحة الخوف والموت، وصل محمد قبل ذلك بساعتين تقريباً، ومع كل دقيقة تقترب أصوات الإنفجارات، ويتراكض في شوارع المدينة فتيان مسلحون بالكلاشينكوف، مدركين أن فعلهم يحمل شجاعة عارية من أي أمل في صد الهجوم، إلا أن الرغبة الجارحة في المقاومة وثقل الشجاعة جعلهم يخرجون في مجموعات صغيرة موزعة في شوارع المدينة.

مع الصباح جاء ضباب كثيف، وصارت آليات الجيش وسط المدينة، وأحاطت بالمقاطعة حيث يواصل ياسر عرفات رحلته الطويلة من حصار إلى حصار.

لا يعرف إن كان الموظفون قد مرروا معاملة أمل في مديرية الشؤون، لكنها خطرت بباله مع صغارها، وتذكر أنه نسي أن يلقي نظرة على حالتها الاجتماعية، قرأ اسمها وتاريخ ميلادها وقريتها، ولم ينتبه إلى وضعها الاجتماعي، وفكر أن سليم لو كان حياً بالضرورة سيكون الآن

في إحدى مجموعات المقاومة، وربما سيستشهد في قتال حقيقي وليس في حادث سير.

محمد يتنقل من محطة إلى أخرى، وشارون يعلن أن ياسر عرفات سيتم عزله، ورذاذ يتساقط على رام الله، فيما تواصل الرشاشات الثقيلة تمزيق الهواء والأجساد والبنايات.

يجلس غسان ومحمد أمام التلفزيون، ساعات تمر دون أن يتحدثا، ينظران إلى التلفزيون، يشربان الشاي، شاياً كثيراً، ولا يتحدثان، يتبادلان كلمات خفيفة كالهواء كلما اشتد إطلاق النار وشعرا باقتراب الدبابات من البناية.

فرض منع التجول.

ـ أنا خبير منع تجول، عشت هذه التجربة مئات المرات في المخيم، كل ثلاثة أشهر تقريباً يمنع التجول في المخيم، صارت الامهات خبيرات في توزيع المؤن على أيام منع التجول الطويلة، نكتفي دائماً بالقليل، ونشرب الكثير من الشاي، وتتوقف الحاجة فاطمة عن بيع الترمس في تلك الأيام.

في أيام قليلة كادت المدينة أن تصير خراباً، عمدت الجرافات إلى هدم ما تستطيعه، حتى شارات المرور، لا لشيء سوى أن يعم الخراب.

وحين خرجا للمرة الأولى بعد أيام من منع التجول، حيث سمح للمواطنين بالتزود بالمواد الغذائية مدة ساعتين، كان الناس يسيرون في الشوارع مأخوذين بحجم الدمار الذي عاشته مدينتهم.

على شاشة التلفزيون رأى بنتاً مصرية تصعد على عربة عسكرية في القاهرة وهي تصرخ «واحد اتنين الجيش العربي فين»!! لكن لن يأت أحد، كما لم يأت أحد طوال سنوات التاريخ الطويلة، وستواصل القنوات الفضائية بث القتل والتدمير، وسيظل ياسر عرفات منذ ذلك التاريخ في حصاره الأخير، حتى نقله للعلاج في باريس، إلى أن أعلن الطيب عبدالرحيم من على شاشة التلفزيون «تنعى القيادة الفلسطينية إلى شعبنا الفلسطيني وأمتنا العربية والإنسانية جمعاء القائد والمعلم ابن فلسطين ورمزها صانع حركتها الوطنية المعاصرة وبطل كل معاركها من أجل الحرية والاستقلال، والدنا ورائدنا وحامل رايتنا نحو المستقبل الجديد، الأخ الرئيس الشهيد ياسر عرفات، الذي انتقل إلى رحمة ربه راضياً مرضياً، في الساعة الرابعة والنصف من صبيحة الخميس 11 تشرين الثاني ـ نوفمبر 2004».

صوت مريم

على محطة «بي. بي. سي» باللغة العربية سمع صوتها، تتحدث مع مقدم برنامج، يبذل قصارى جهده كي يقول الناس ما يريدون في أقل وقت ممكن، وكعادتها في استخدام قنابل لغوية كانت تنسف عروش وتهدم أنظمة وتنتصر للمسحوقين، قالت: حتى وإن جاءت الثورات بالإخوان المسلمين إلى سدة الحكم، سيكون ذلك أفضل من حالة الركود التي يشهدها العالم العربي، ازهقنا من صور الرؤساء ومجالس النواب وزعيق التلفزيونات الوطنية في تمجيد الدكتاتوريات! وشكراً هادا يللي عندي.

ـ شكراً للمتصلة من مونتريال، انتهى وقت البرنامج، نعود ونلقاكم غداً، في نفس الموعد، إلى اللقاء.

صوتها نفسه، نبرة الغضب نفسها، لكن جاء ممزوجاً هذه المرة بأمل قريب، إلا أن مسحة الحزن الأبدي ظلت تلوح في صدى صوت مريم، ذلك الحزن الذي لم يستطع طوال خمس سنوات أن يمسك خيطاً منه.

ـ بتعرفي إذا مسكت خيط من حزنك رايح أنسله لحد ما أفرط كل خيوطه.

ـ «كلام مثقفين ركيك»، قالت، وضحكت.

ثم دون أن تلتفت ناحيته، ذهبت إلى النافذة وأطلت من الطابق السادس عشر في القسم «ي» ، حيث ندف ثلج تتشكل وتتساقط منذ ساعات مساء الأمس وحتى الآن، فيما يشبه مشاهد سينمائية من أوروبا الشرقية، قالت:

ـ على فكرة ماني حزينة ولا شي، ببساطة ماني عرفانة إفرح أو كون سعيدة.

قالت أيضاً: ولا أعرف سبباً يحول دون ذلك.

هل خطر ببالها أنه ـ في هذه اللحظة بالذات وهو يغير أرقام المحطات على الرموت كونترول في شقته المعزولة على كتف بيت جالا ـ سمع صوتها صافياً وجليلاً مثل وعد مؤجل، وأنه فكر أن اهتمامهما مشترك الآن في متابعة أخبار الثورات العربية، وأنه تذكر عشرات المرات السيناريوهات التي كانت تصفها للتغيير في العالم العربي، أثناء عيشهما المشترك في غرفته داخل سكن الجامعة:

ـ عندي ثلاثة احتمالات للتغيير في العالم العربي، أولاً الكوارث الطبيعية، كأن تعم الفيضانات أو تضرب الزلازل أو تسقط نيازك عملاقة، ثانياً أن يهاجر كل سكان العالم العربي ويتوزعون في مختلف بلدان العالم شرط أن لا يشكلوا جماعات هناك، بل مجرد أفراد لاجئين، ثالثاً ثورات عارمة لا تهدأ حتى تهدم كل شيء وتترك الهدم، كي يجيء جيل جديد تماماً ليبدأ البناء.

وفي كل ليلة، وأحياناً دون أية أسباب أو مقدمات تأخذ مريم في شرح خطورة النظام الأبوي في المجتمعات العربية:

ـ النظام الأبوي لا يسمح بالثورة، ولا يقدم شروطاً تساعد على قيامها، لأنه يعرف أن الثورة إن بدأت ستقلب موازين القوى، لا أنظمة ولا قمع سياسي، وبالضرورة وكنتيجة لذلك، لا قمع اجتماعي يمارس ضد المرأة.

دائماً في نهاية جملها، تمهر شرحها بجملة «وبالضرورة، وكنتيجة لذلك». قال لها:

ـ بتعرفي كلما قلتِ *بالضرورة* وكنتيجة *لذلك*، اتخيل هذه الكلمات مطبوعة مع وجود فاصلة بين كلمة و*بالضرورة*، و*كنتيجة لذلك*.

ضحكت. كثيراً ضحكت تلك الليلة، صارت تشبه غزالة شقية شاردة، غزالة معافاة، رشيقة، ومتطلبة، غنوج كنهر صغير يجري وراء حديقة خلفية لقصر أمير قديم.

حين سمعها قبل قليل على التلفزيون لم تستخدم «وبالضرورة وكنتيجة لذلك»، انتظر أن تقول هذه الجملة كعلامة على زمن مضى، علامة على شيء مشترك جعلها تضحك ليلة كاملة.

لم يكن في مديرية الشؤون الاجتماعية تلفزيون، فيما الأخبار تتوالى من مختلف الدول العربية، فايروس نبيل يتنقل بين الناس، هبات في الشوارع وشعارات وأيدي تلوح وتتوعد وتحلم، ملتحون ويساريون وليبراليون وخلطات عجيبة من الناس، تنزل يومياً إلى شوارع اليمن ومصر وتونس والأردن وسوريا والبحرين والمغرب والجزائر والسعودية، على اختلاف في عدد المشاركين في كل دولة.

حين انتهى من سماع نشرات الأخبار أخذ يتنقل من جديد بين قنوات

الأفلام، رأى سكارليت يوهانسون بالقرط الؤلؤي لأول مرة، شدته إلى التلفزيون، وفي طريق عودته من العمل أخذ يبحث عن أفلامها الأخرى، اشترى «ضاع في الترجمة» وعاد ليشاهده من جديد، صار يحب سكارليت، فيها مسحة حزن غامض، قال لنفسه، حتى وهي تضحك.

ـ حلو يكون للواحد ممثل أو ممثلة مفضلة، أنا إذن أحب تمثيل سكارليت يوهانسون وهند صبري.

حين عاد إلى سماع الأخبار، كانت مصر في الشارع، نزلت من جديد عفية وكاملة، لمح في صوت نوارة نجم ثقة نادرة وهي تتحدث مع الجزيرة: لا بد أن يقول فهمتكم، في إشارة لما قاله زين العابدين بن علي قبل أيام. دفعة واحدة تدفق عشرات الأولاد والبنات إلى شاشات التلفزيون ليرى العالم صورة مصر الحقيقية، مصر دون خوف أو تردد، تذهب الآن إلى مستقبلها مرة أخرى، يمسك بيديها الأولاد والبنات نحو بوابة المستقبل، وفي اليوم التالي كان مع محمد في ساحة المنارة في مدينة رام الله يهتف لثورة مصر.

وفي الساعة السادسة من مساء يوم الجمعة 11 شباط 2011 أعلن التلفزيون المصري أن بياناً هاماً سيصدر بعد قليل، ليطل بعد ذلك عمر سليمان بتكشيرته المعهودة وملامحه المتكتمة، وبلسان يرتجف:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أيها المواطنون، في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد، قرر الرئيس محمد حسني مبارك تخليه عن منصب رئيس الجمهورية وكلّف المجلس العسكري بإدارة شؤون البلاد، والله الموفق والمستعان».

رسائل

وصلا الساحة الحمراء، قادمين من شارع غوركي، تحت ندف الثلج الخفيفة، مساء 26 ديسمبر عام 1991، كانت ساعة الكرملين تشير إلى التاسعة، فيما يصعد عدد من الرجال إلى سطح الكرملين لإنزال العلم الأحمر الذي رفرف هناك منذ عشرات السنين.

شهقت مريم. لم يصدقا ذلك، ظنا أن الأمر لا يعدو كونه مؤامرة صغيرة، أو ربما مزحة سمجة، فلا يعقل أن تشاء الصدفة أن يشهدا إنزال الراية الحمراء من على ظهر الكرملين.

لا يمنح الإنسان حياة ثانية، حياة يعيد فيها ترتيب الأشياء، أن يختار أصدقاءه وعمله وعلاقاته الجنسية وقراراته، ولا يجد إجابات شافية طوال عمره، في كل مرة عليه أن يقف على مجموعة احتمالات، وأن يختار، بنفسه، وأن يندم في كثير منها. لا تمنحه الحياة مفاتيحها إلا حين يوشك أن يغلق للمرة الأخيرة عينيه، لو قيض له أن يسمع صوت الموتى وهم في قبورهم، ما الذي سيقولونه، هل تنشغل السماء بتأوهاتهم وضجرهم الأبدي؟ ما الذي سيطلبونه لو منحوا فرصة جديدة؟

سيطلبون وقتاً إضافياً، علماً أن الوقت كله كان بين أيديهم، وكانوا

يرمونه بالأطنان، وهم يأكلون ويشربون ويتكاسلون كل صباح، وهم يتمطون أمام شاشات التلفزيون. وقت عظيم هدر وهم يشربون الشاي، ويلوكون سيرة أحدهم في غيابه.

يعرف أن الزمن لا يتكرر، ولا ينتهي، فقط يمر، دون رائحة، دون صوت، لكنه يمر.

يراه في تبدل ملامحه في المرآة، في صعوده الدرجات، في تجاعيد وجه الجدة الآتية من زكريا إلى المخيم، لتقول كل صباح في ما يشبه معزوفة عسكرية لدولة قديمة: يقطع هالعمر مر عالفاضي، مر وإحنا نستنى!!

مريم ترى أن الزمن هو المطلق الوحيد الذي تقر به، لذا طالما حدثته أن الشيوعية لا تتعارض مع الله:

ـ أنا مؤمنة بالله بطريقة منطقية أكثر بكثير من عشرات المتدينين، لا أحتاج إلى دين ليرشدني إلى الله، أنا أعرف الطريق إليه، إيمان صاف وحقيقي، على فكرة بتعرف انو عندي نزعات صوفية، أقصد نزعات روحانية غنية جداً.

ـ يعني إنتي مثل نُص هيجل؟

ـ لا أنا مثل نُص مادية.

وبعد لحظات: على فكرة عم يخطر على بالي إسألك من زمان: مين أحلى حَلَماتي والا حَلَمات اليزابيل؟

لا يغلق مكتبه في مديرية الشؤون الاجتماعية، لذا لا يترك أوراقاً خاصة على المكتب، كان قد كتب صباح هذا اليوم في فترة الدوام رسائل

إلى مريم، وفي داخله يقين أنه لا يستطيع أن يرسل أي منها إليها، يؤجل ذلك في انتظار شيء ما، هو نفسه لا يعرفه.

كتب لها عن مداخلتها التلفزيونية على البي بي سي، ورسالة عن «المعتمد بن عباد» وقصة «ولا يوم الطين»، والرسالة الثالثة طلب منها أن تذكّره باسم المنطقة التي ذهبا اليها في ضواحي موسكو، في الكوخ الريفي الذي تبرعت به نتاليا لهما في عطلة نصف السنة، حمل الرسائل الثلاث وعاد مشياً كعادته إلى البيت.

تذكر أنه لم يسألها يوماً إن كانت تعرف قرن الغزال؟ وكيف يسمونه في لبنان؟

في البيت أعاد قراءة ما كتبه من رسائل. أعاد القراءة متخيلاً ردود فعل مريم، أحضر منفضة وأشعل سيجارة وراح يحرق الرسائل بهدوء رجل عجوز ينجز مهمة صعبة.

لم يذهب منذ شهور إلى صندوق البريد، قرر أن يتوجه في الغد بعد إنتهاء الدوام إلى البريد، للإطمئنان، تأكد من وجود مفتاح الصندوق في جيبه، وأعاد قراءة رسائلها السابقة، ولم ينم تلك الليلة، صارت وجوه قديمة تطل من حائط البيت لتوقظ في داخله ذكريات سحيقة لا يستطيع أن يمسك منها شيئاً، ومع الدوار الذي لف رأسه تعب وغفا قبل أن تطل الشمس المغناجة على بيت جالا.

«أدرّس مادة اللغة العربية للطلاب الراغبين في ذلك، اكتشفت أن اللغة العربية لها سوق بعد 11 سبتمبر، الطلاب من جنسيات مختلفة، بالأمس تذكرتك، لأن أحد الطلاب كان يلف على رقبته حطة فلسطينية،

مريم».

ترسل جملاً فقط، برقيات تأتي مثل شريط أخبار عاجلة. جمل تتركه أكثر عزلة، يصير وحيداً حتى من نفسه، يمارس طقساً احتفالياً كئيباً كلما وصلته إحدى تلك الرسائل التي درج على تسميتها بينه وبين نفسه «رسائل مونتريال».

جاءت رسالتها الأخيرة، في آخر الخريف، راحت غيوم كثيرة تهب من الشمال وكأنها في سباق، غيوم أقرب إلى البياض منها إلى أي شيء آخر، وفي مساء ذلك اليوم دخلت سحب أخرى، سوداء هذه المرة وكثيفة، وهطلت مياه كثيرة على بيت جالا، أمضى ساعات المساء كلها على النافذة يرقب شجرة الكينا وهي تستحم حتى عظامها.

أوشك على البكاء، لأنه عاجز عن إرسال خطاب واحد لها. كانت قد أخبرته أن سلبيته مثل مشنقة مرفوعة تتدلى أمامها في الباص والمترو والساحة الحمراء. قال لها بكل غباء ودون تفكير: تشابيهك أدبية..!!

ولم تضحك، ولم تبك، حملت حقيبة يدها وخرجت .

في الأيام الأولى حين تعارف مع مريم، لم تكن علاقته مع ايزابيل قد إنتهت، كانت على وشك، أصرت ايزابيل عليه بقطع علاقته مع (البنت العربية)، لأنها مريبة، ودائماً تحمل حقيبة واسعة وتدور ببنطلون جينز مثل ثوار السبعينيات ومثقفي البارات. هكذا قالت ايزابيل.

كانت حقيبة مريم واسعة، طالما تناقشا حول محتوياتها، وصف حقيبتها مرة بأنها تشبه حقائب بنات الجبهة الديمقراطية في الجامعة،

قررت أن تُخرج كل محتوياتها أمامه على السرير، وبدآ في عد الأشياء، تعميم داخلي من الحزب، في ثلاث صفحات، مشط، أدوات تجميل خفيفة (هكذا وصفتها)، شال بني، ثلاث سجائر دون علبة، ورواية «الف وعام من الحنين» لرشيد بو جدرة. لا مرآة.

ماء كثير يسيل على بيت جالا الآن، يجيء من كل مكان، يشبه أمطار أواسط الشتاء، يجيء مبكراً، قبل أن يغلق الخريف نافذته الأخيرة، يجيء مع رسالة مونتريال إلى تلال وبيوت بيت جالا.

كلما أطل من النافذة رأى تلالاً تمتلىء ببنايات متراصة ومنظمة، ككتائب عسكرية في تمرين لعرض قادم. المستوطنون صاروا قريباً من نافذته، يطل فيرى بيوتهم على التلة المقابلة، لا يرى بشراً، فقط بنايات متراصة وسيارات عسكرية محصنة على مدار الساعة، تدور حول تلك البنايات، خلف أسلاك شائكة وقوية وعالية، حرمت الغزالات القليلة المتبقية في أراضي بيت جالا من شرودها الصباحي.

لا يتكرر الزمن. فقط يمر.

عجز كامل في الرد على رسائلها أو برقياتها العاجلة، لا يعرف سببه، فإما أن يقول لها كل شيء دفعة واحدة وإما لا، هكذا صار يفكر حين وصلته رسالة الشتاء، فكر أيضاً أن يمنح الرسائل أسماء الفصول التي تصل فيها. إلا أن رسالة شتوية متأخرة وصلته دون ترقب منه هذه المرة:

«وصل شقيقي حسين إلى كندا، سيتزوج من امرأة باكستانية، ويستقر هنا.

وأنت، كيف أنت!».

أخذته موجة حنين عارمة، أرادها الآن قربه تعيد على مسامعه بصوتها: «كيفك أنت!».

مريم إذن تسأل عنه، تحرضه على الكتابة إليها، تريد بكل بساطة أن تعرف أخباره، هكذا فكر وهو يعيد قراءة الرسالة من جديد، صار يقسم الرسالة إلى مفردات متباعدة ويعيد تشكيلها، وجد أن لا معنى إلا «كيفك أنت!» بكل وضوح وصراحة، دون فلسفة، لكنها في نفس الوقت مجانية، متوفرة وموجودة في أفواه كل الناس، «كيفك أنت!»، إلا أنها الآن تحيله إلى المرة الأولى حين سمعا فيها أغنية فيروز، ثم حاولا تذكر كلماتها، وهما يقطعان شارع لومونوسافا باتجاه المبنى الرئيسي للجامعة، كانت تظللهما أشجار التفاح الممتدة في صفين على رصيف الشارع الفرعي، المؤدي إلى سكن الطلبة في المبني، كانا سعيدين بأشجار التفاح باعتبارها علامة على خير ونعمة الإشتراكية، يمشيان بفرح تحت الأشجار وكأنها تجليات مادية لفكرة راودت أحلامهما طويلاً.

وعلقت كلمتان خفيفتان في ذهنه زمناً طويلاً:

«كيفك أنت!!»

اليزابيل

-1-

في الكافيتيريا، وبعد أشهر قليلة من التحاقه بالجامعة جاءت اليزابيل لتشرب القهوة، لم تكن المحاضرات قد بدأت بعد، جاءت بملابس بداية الشتاء الروسي، علقت على كتفيها حبات خفيفة من الثلج، أخذت تذوي مباشرة مع حرارة الكافيتيريا، أنفها محمر، وشفتاها عريضتان على فم واسع بأسنان بيضاء كأنها لم تستخدم من قبل قط.

اختفى والدها أثناء حكم بيونيشة في تشيلي فترة السبعينات وهي بعد طفلة صغيرة، وحسب نظرية أن البشر يشبهون الحيوانات، كان يحتار كثيراً في وصف اليزابيل، ربما اهتدى إلى أن أنثى من فصيلة كلاب هاسكي المميزة هي الأقرب إليها، لكنه لم يطمئن إلى النتيجة تماماً، فاليزابيل أشد فتنة من أن تصنف. كانت شفتاها هما جواز سفرها إلى العالم، شفتان حارقتان ومعجونتان بماء نباتات برية وزهور بيتية وروائح حدائق سماوية، مشدودتان ورخوتان، آثمتان وصائمتان، متطلبتان وزاهدتان، ولم يدر بخلده بتاتاً أن تكون هذه البنت طالبة في كلية الطب في الجامعة.

لا يعقل أن تقبل في كلية الطب فتاة سيلحق جمالها في صدور مرضى القلب خفقاناً يودي إلى الوفاة.

لا تملك أن تكون أمامها، أو للدقة أمام شفتيها، سوى رجلاً مرتجفاً، أو امرأة حانقة، أو صغيراً يحلم بقبلة على خده، أو عجوزاً تقبل يده التي أبلتها السنوات الطوال. إلا أن أكثر ما يثير فيها: عدم درايتها بذلك كله. تشرب القهوة كالآخرين، ولا ترى نفسها إلا واحدة من مجموعة كبيرة من البنات، تجلس في حلقة بنات أمريكا اللاتينية لتضحك على تعليقاتهن على أولاد الجامعة.

هذا عام اليزابيل إذن.

لكن دراسة الطب لم تكن تسمح لطلبة الأقسام الأخرى، كالصحافة والأدب والقانون برؤية اليزابيل كثيراً.

تمر أيام دون أن يرى اليزابيل، تأتي وتذهب في أوقات متباعدة لتشرب القهوة، وتمضي عجلى إلى المختبرات في الكلية، وبعد غياب أسابيع، في ليلة رأس السنة حين ذهب إلى غرفة تهاني التي دعت عدداً من الأصدقاء للمشاركة في السهرة، اجتمع سبعة مدعوين، أضاءت شفتا اليزابيل ليلتهم. كانت هناك، تشارك في تحضير أطباق السلطات، ووضعها على طاولة صغيرة على طرف الغرفة التي صارت مزدحمة بوجود سبعة أشخاص مرة واحدة.

أبلغتهم تهاني أن الأغاني قبل منتصف الليل ستكون أممية، أي تشبه المدعوين، على أن تكون معروفة للجميع وكل واحد يستطيع أن يشارك

بلغته، طالما أن ايقاع الأغاني الأممية واحد.

وبدأت اليزابيل تنشد أغنية الشبيبة المشهورة:

«في كل العالم عندي حبيبة هي الشبيبة

يعلو صداها في كل مكان:

عاش السلام دوماً.. والحرية».

وأشارت بيدها، فشارك الجميع كل بلغته في الأغنية، كانت إحدى أغاني الشبيبة الشيوعية التي تغنى في المهرجانات الدولية، وفي مؤتمرات اتحاد الشباب العالمي، وفي اتحادات الطلبة اليسارية بالذات.

أكملت تهاني توزيع الأدوار، باعتبارها المضيفة «ومديرة شؤون السهرة» كما عرفت على نفسها، وأضافت بالروسية: بصفتي مديرة شؤون السهرة لا مغادرة دون إذن مسبق مني، ولا تعب، ولا ما يحزنون، إلا أنها قالت «ولا ما يحزنون» باللغة العربية، عندها صاحت اليزابيل: ترجمة، ترجمة..!!

أوكلت مديرة شؤون السهرة إلى غسان ترجمة «ولا ما يحزنون» إلى اليزابيل، وأكملت تهاني هذياناتها الخفيفة واللطيفة. وحاول هو أن يشرح لأليزابيل المقصود، لكنها تفاجأت وطلبت تفسيراً أكثر عقلانية من ذلك.

ـ هل تعرفين القرآن؟

ـ طبعاً.

ـ ورد في كثير من سور القرآن آيات تتضمن هذه الكلمات، وهي تقال

عن الذين آمنوا وعملوا أشياء جيدة للآخرين.

ثم حاول أن يترجم آية «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

فهمت أخيراً، وأعجبتها الفكرة.

واصلت تهاني إصدار تعليماتها المتهكمة، وواصل الشعب ، كما كانت تسميهم في تلك الليلة، الغناء الأممي حتى منتصف الليل، وحين حط العام الجديد بدأت باعلان بيان هام حسبما قالت «إليكم أيها الشعب هذا البيان الهام، تستطيعوا الآن أن تتحرروا قليلاً من الأغاني الثورية، يا مجانين».

حين امتد الليل إلى بداية العام الجديد، أخذت أضواء غرفة تهاني تخفت تدريجياً.

وقفت اليزابيل معه على النافذة، أراد أن يقول لها ببساطة أنها مستحيلة، أو أن يحدثها عن الأرق الذي أصاب المكان حين مضغت قطعة خبز سوداء مع الايكرا. لكنه استسلم لملامسة الكهرباء التي مرت في دمه حين تحركت أطراف أصابعه على يدها، ولا يدري للآن كيف اتفقا على الذهاب إلى غرفتها لقضاء ما بقي من عتمة الليل. ليس أمامهما من ليل طويل، كانت الساعة تقترب من الخامسة صباحاً، إلا أن الشمس هنا لا تخرج من بيتها مبكرة في الصباحات الشتوية الطويلة، ستظل العتمة طاغية خلال الساعتين القادمتين على أقل تقدير.

في غرفة ايزابيل روائح غابات، وعلى سريرها وجع أنثوي قديم،

وعلى رف الكتب خساراتها، صورة يتيمة وصغيرة بالأبيض والأسود لأب لن يعود ، ترك شعر وجهه ورأسه، وأنشغل في مقاومة دكتاتور تشيلي، الذي اقتحم مع رجاله مقر سلفادور الليندي يوم الحادي عشر من سبتمبر عام 1973، حيث قتل حوالي الساعة الثانية والنصف من ظهر ذلك اليوم، دون أن يستسلم أو يقر بانقلاب الدكتاتور عليه، وعلى الشعب الذي اختاره بصفته طبيباً للفقراء. الفقراء والمقهورين الذين خاطبهم الليندي قبل خمس ساعات من وفاته عبر الراديو «لا يسعني في ضوء الأحداث إلا أن أقول شيئاً واحداً للرفاق والعمال: لن أتوقف عن القتال، في هذه اللحظات التاريخية سأضحي بحياتي وفاءً لشعبي. وأنا واثق من أن البذرة التي زرعناها في ضمائر الآلاف والآلاف من التشيليين سوف لن تموت، سوف لن تقتلع تماماً من جذورها في يوم من الأيام».

وفي غرفتها خلاخيل وأساور وشالات وأقراط موزعة على حواف النافذة العالية، لم تمسسها يد اليزابيل على ما يبدو.

طلبت منه الجلوس كيفما يشاء وفتحت خزانتها وتناولت ثوباً بيتياً، ومضت إلى الحمام، لم ينظر ناحيتها. أطلت بعد ثلاث دقائق، لتجلس قبالته على الارض، حيث الوسائد مرمية على الموكيت الخمري النظيف.

وفي غرفتها، راحت أصابع الشهوة تتلمس الهواء الذي يجيء من فمها حاملاً روائح الحدائق البرية، وخلف رفيف ثوبها دقت قلوب الشعوب المقهورة والتواقة للحب، وحين رمت وسادة صغيرة ليضعها خلف رأسه لاحت ظلال إبط يدها اليسرى، فشهق. ندف الثلج تتمايل

خلف زجاج النافذة المطل على شارع ميكلوخا ميكلايا، لا يجيء نعاس ولا تعب، إنها الحواس الخمس مشغولة في حضرة ايزابيل، ولاح طرف ثديها الأيسر حين رفعت يدها لترمي الوسادة له، هل رأى ملائكة على كتفيها؟

ولاحت ظلال حبة كرز بنية، يلفها ساتان مقدس، كأنها ناعسة ويقظانة في آن، مشبعة بماء الورد، ومغسولة بهوس الإبهام والسبابة اللذين أدارا عليها الدوائر، لا تنطفيء الكرزة حين يأخذها في فمه، تتغانج وتهرب وتجيء وتقول قولاً حكيماً. تدور الكرزة فيما يحس نبضها وشرودها في فمه، على لسان رطب، وكلما مسها بلل، ضاقت تأوهات خافتة في الصدر، فخرجت عذبة متطلبة.

ليس فماً ما ذاق تلك الليلة، ولا أطعمته لعاباً انسانياً كان يشف ويسيل ويشف، ولما أدارت رأسه إلى بطنها أفاق ماؤه مرتين متتاليتين ولم يبتعد. صار يحج ويطوف على بيتها الصغير، ويشرب ما سال به من سلاف.

-2-

ستسأله مريم عن حلمتي ايزابيل، أكثر من مرة، وفي مناسبات مختلفة.

ولأسباب غامضة علق اسم اليزابيل في فم مريم، ولم تحل دون تذكرها أسوار البرود التي ارتفعت بينه وبين اليزابيل وامتدت، حتى أنه لم يعد متأكداً إن كان قد عاشر تلك البنت أم لا. وفي مصادفة اللقاء العرضي، في باص محطة يوجا زابدنيا تبادلا التحيات كما يفعل المعارف

القدامى، ولم تكن الايماءات تشي بأنهما يتذكران ليلة رأس السنة وما بعدها من أيام إمتدت عاماً ونصف ، تعاطيا بعضهما كأنهما خلقا لمهمة واحدة: أن يتضاجعا.

وحين ترجلا من الباص، وكعادة الحياة التي تسيرها قوانين غيبية، كانت مريم تقف أمام محطة النزول، وعندما رأتهما يترجلان من الباص، عرف غسان أن الطمأنينة لن تعود إليها من جديد ، حتى وإن شرح لها صدفة اللقاء.

ظلت مريم تحمل ملف «الباص» كما سمته (وبالمناسبة كانت تحب أن تطلق أسماء على كل موضوع ذي قيمة حسب رأيها)، تفتح الملف كلما عنّ لها ذلك، حتى بعد رحيل اليزابيل إلى التشيلي.

صارت كل دول أمريكا اللاتينية تذكر مريم بملف الباص، وعندما أرسلت تقول أن ولداً في الصف من أمريكا اللاتينية يلف الكوفية الفلسطينية على عنقه، فهم اشارتها، لأنها علقت كثيراً على ذلك. ولو نزلت اليزابيل ذلك اليوم من الباص دون الكوفية الفلسطينية التي أهداها لها، كان يمكن أن تتسامح مريم مع الموضوع، لكن الكوفية كانت شاهدة على أن مصيراً ما قد ربطه مع اليزابيل، وأن ذكريات سيحملها الاثنان عن بعضهما لها شواهد حية، مثل وسادة تركتها اليزابيل في غرفته عليها علامات السكان الأصليين، وكوفية اعتادت أن تتركها على كتفيها.

سيتذكر اليزابيل وهو يتمشى على الجسر المهترئ، سيتذكرها ويحن إليها، حتى وهي تلوح بيدها أمام وجهه شارحة أسباب عدم قدرتها على الاستمرار أكثر من ذلك.

ـ أنت لا تحبني، أنت تحب أن تنام معي. صدقني هذا هو كل ما في الأمر، وأنا تعبت، تعبت من الطلب منك دائماً أن تهتم للتفاصيل الأخرى، أن تهتم بي، أمنيتي أن تسألني عن كلية الطب، عن أمي، أن نذهب للبلشوي. كل الناس تذهب للبلشوي إلا أنا، هذه أشياء لا تُطلب، إما أن تحدث وإما أن لا تحدث، وأنا أنتظرت شهوراً طويلة ولم تحدث.

ـ أنتظرتِ أن نذهب للبلشوي؟

كان رده سخيفاً دون أن يتقصده، وجاء جوابها شافياً وواضحاً:

ـ اسمعني، الموضوع إنتهى تماماً، خلص.

قالت «خلص» بالعربية.

كانت اليزابيل قد لاحظت أن مريم جاءت مرتين للسؤال عن غسان، باعتباره زيملاك (بلدياتي) كما قالت لاليزابيل، صارت مريم تقترب أكثر، وصار هو أكثر رغبة في قضاء الوقت بالتسكع معها بعد الدوام الجامعي، رأتهما اليزابيل عند طرف السكن الجامعي يضحكان بهستيريا ويتجادلان بأيديهما كما يفعل العرب عادة، صارت تتوجس من البنت ذات الحقيبة الواسعة، قالت له ذلك مباشرة، لكن كبرياءها لم يسمح لها بإضافة المزيد.

ستذهب اليزابيل فجأة، ستبلغه ببساطة وسهولة كعادتها، أنها لا تستطيع أن تمضي معه أكثر من ذلك، وبعد شهر تقريباً ستغادر إلى التشيلي في رحلة طويلة، ليدخل مع مريم عالماً كان مستعداً له منذ زمن.

العائلة

لا أحد يعلم على وجه الدقة متى تحول أجداد غسان نصار إلى الإسلام، بيد أنه يعرف جيداً، كما غالبية أفراد العائلة، أنهم منذ سنوات ليست بعيدة، كانوا يحتفظون بأسمائهم المسيحية، وحين اقترب المسلمون عام 634 من قرية زكريا (قرية جدته وجده)، في منطقة أجنادين، وبدأت المعارك صباح 30 تموز بين العرب والروم، أخذت بعدها البلاد تتهاوى تحت ضربات الجيش الإسلامي، وصار السكان يعتنقون دين المنتصرين، كعادة الشعوب في تلك الفترة.

إلا أن عائلته على ما يبدو واصلت الصلاة في الخفاء لعيسى بن مريم، ولا يعلم أحد متى جاهرت بإسلامها على الملأ. من المؤكد أن ذلك جرى بعد مئات السنين من وصول الإسلام.

لكن العائلة، وسكان زكريا حافظوا على علاقات حميمة مع الدير القريب، يومياً يذهبون إلى الدير لأسباب مختلفة ظلت غامضة حتى اليوم. الراهب الذي أشرف على الدير آنذاك تميز بعلاقات خاصة مع أهالي البلدة، حتى تهجيرهم في حرب عام 1948، وفي مساءات المخيم الأولى، بعد تهجيرهم، ظل أهالي القرية يتذكرون راهب (دير الجمال)

ويحنون اليه، ويتحدثون عنه كعزيز مفقود.

لم يكن يفهم لم تقوم جدته كل ربيع بسلق البيض مع العشب وأوراق البصل في عيد الفصح، وتوزعه عليهم، ولم يدرك أن هذا الطقس يمارسه المسيحيون الفلسطينيون، إلا بعد أن صار شاباً.

بالتأكيد ورثت الجدة هذا الطقس من أجدادها أيضاً، قال.

كان يراها خلف بيتهم في المخيم تلم الأعشاب النابتة حول الصخرات القليلة، أعشاب خضراء وطازجة تلفها حول البيض وتضعها في الماء للغلي، ثم توزعه عليهم في طقس احتفالي فقير.

استغربت مريم احتفال جدته في المخيم بعيد الفصح، حينما روى لها الطقس الذي اعتادت أن تمارسه كل مطلع ربيع، لكنها لم تكن تفهم سبب تعلقه بالطقوس الدينية المسيحية والإسلامية رغم عدم قيامه بممارستها. قالت له أن وجهة نظره من الطقوس الدينية شاعرية تماماً.

ـ لا أحتاج في علاقتي مع الله إلى وسيط، انا أحس بأني مؤمن إيماناً عميقاً بالقوة الإلهية، وإن كنت لا أقر بالوسائط الدينية، إلا أني أحب شهر مضان وأصوات المكبرين في صلاة عيد الأضحى، وكلمة آمين الجماعية التي يختتم بها الناس سورة الفاتحة، وأحب عيد الميلاد وأواظب على زيارة كنيسة المهد، حتى أني أشعل شمعة في كل مرة، وأذهب إلى مغارة الحليب وأطوف حول الكنيسة، كما أتخيل أرجل ملائكة ترف بأجنحة خفيفة في سماء بيت لحم. قال.

كانت مريم تحب أن تعلن دون مناسبة في كثير من الأحيان أنها مادية:

ـ انا مادية، لا حياة بعد الموت، بعد الموت عدم ولا شيء آخر.

ـ شو يعني عدم؟ يسأل.

ـ عدم، الإنسان مثل التلفزيون، إذا سحب الفيشة من الكهرباء سكت، ومات.

ـ يعني الكهرباء هي الروح.

ـ لا.. لا.. لا أظن أن هناك روح، هناك سلك وكهرباء، وموت.

وعندما ذهبا للمشاركة في اجتماع النادي الثقافي في موسكو، في حلقة النقاش الشهرية، حول الفلسفة والدين، وقدم مداخلة مقتضبة مفادها أن الديانات هي فلسفات ومحاولات تفسيرية للكون، وأن اعتمادها على الغيب هو وسيلة ذكية لعدم مجابهة أسئلة الوجود المركبة والصعبة، وأن هذه المحاولات الفلسفية هدفها الإنسان وتحسين حياته ومساعدته، ثارت فجأة ودون سابق إنذار.

ـ «هذا كلام فارغ، يعني كلام لا يقول شيئاً، كلام للهروب، كلام الناس غير القادرين على الفعل»، وواصلت بنفس الصوت واللهجة محاولتها في تسخيف ما قاله.

تمنى لو تسكت، شعر باستياء من طريقتها ومن ومحاولتها تسخيف ما يقول أمام المشاركين من أعضاء النادي، الذين تفاجأوا أيضاً من استهزائها به، وظل صامتاً في طريق العودة إلى السكن. نزلا إلى المترو دون تبادل الكلام، وجهه يدل على حنق، ووجهها متحفز لأية إشارة استياء قد تبدر منه.

ـ «سأذهب عند الشباب الليلة في السكن الثاني، يمكن أرجع متأخر. بدي أنزل على المحطة الجاي، بشوفك إذا رجعت بدري».

لم تجب بشيء. ولم يضف هو شيئاً. نزل على المحطة، تسكع قليلاً وشرب عند زاوية الشارع زجاجة بيرة كبيرة الحجم، زجاجة مثل هذه كفيلة بأن تدوخ رأسه، لم يعتد شرب الخمر طوال سنوات دراسته، لكنه شعر فجأة أن البيرة وحدها كفيلة بأن تسكت صراخ روحه ضد أفعال مريم غير المبررة.

يعرف أن غرفة الشباب (كما كان يسميها) في سكن الجامعة مكان تجمع أصدقائه، ولا تخلو مساءات السبت من سهرات تمتد حتى الصباح. اشترى زجاجات بيرة إضافية، حملها إلى غرفة جهاد، وما أن دخل حتى أشعل سيجارة، وفتح زجاجة بيرة ولاذ بالصمت. ثم قرر فجأة الذهاب إلى السينما القريبة، رافقه جهاد دون كلام على غير عادته، لكنه استوقفه للحظات أمام مبنى سكن الجامعة.

ـ سأعود بعد خمس دقائق، قال له.

عاد جهاد اليه، يرافقه جرو صغير ضال، اتضح أنها أنثى، يسميها جهاد «ماشا»، كان يداعب رأسها بحنان وحب بالغين:

ـ اسمعْ، عزمت نتاشا وصاحبتها للسينما، بلحقونا بعد شوي.

قال جهاد كمن حقق معجزة، كان سعيداً مثل طفل، رغم حجمه الهائل.

أطلت نتاشا وناستيا بعد عشر دقائق، أشار جهاد إلى ماشا بالذهاب،

ركضت مبتعدة تجاه طرف الغابة خلف السكن، وصلوا السينما بعد بداية عرض الفيلم، يذكر أن اسم الفيلم كان غريباً عليه، حاول ترجمته للعربية فلم يتمكن، لكن الترجمة الأقرب كانت «نبتة وحشية». تهامس بفضل البيرة مع ناستيا وتبادلا ضحكات مكتومة، وتلامسا بهدوء، وما أن خرجا من السينما حتى غطت العتمة سماء المدينة، أخذها على طرف الشارع، وتبادلا قبلات صارت بعد لحظات قليلة محمومة، تضع لسانها وتحركه في فمه وتمد يدها لتمسك عضوه، وحين اقتربت بفمها من أذنه همست له:

ـ تعال إلى غرفتي الآن.

استيقظ باكراً، وحين نهض من سرير ناستيا، أطل على جسدها، على الزغب الأشقر الخفيف النائم تحت سرتها فوق بيت النار. انتابته حالة هياج، جلس على الأرض وبدأ يلعقها، أبعدت ما بين فخذيها، لتمكنه من مواصلة المهمة، دون أن تنبس ببنت شفة.

أخذت تتمطى وتفلت شهقات متصلة، أخرجت طرف لسانها وحركته على شفتها العليا، رفعت جفنيها قليلاً لتطل على فمه الغارق بين تعرجات لحمها، صعد إليها من جديد.

وما أن فطن إلى الوقت الذي أمضاه في رفقة ناستيا، حتى كانت شمس ذلك النهار تبتعد تدريجياً.

في طريقه إلى السكن، شعر بخجل من رؤية مريم، أحس وكأنه مارس فعلاً شائناً وغير ضروري ضدها بالذات، أي سَبَبَ لها ألماً لم تدر

عنه، ولم تعلم به، وهذا أكثر ما أحزنه تلك الليلة.

حين وصل الغرفة لم تكن موجودة، تركت له ورقة صغيرة على الطاولة، كلمتين فقط، «ذهبت إلى غرفتي». غرفتها في سكن آخر بعيد عنه نسبياً، ارتاح لتلك الفكرة، سيكون من الصعب رؤيتها هذه الليلة والنوم بجانبها على السرير ومضاجعتها. دخل إلى الحمام، مكث طويلاً، أحس براحة في أنه الآن معزول ووحيد يمارس فعلاً شخصياً، لا أحد يشاركه به، يتبول ويخرج ويستحم، دون وجود أي كائن قريب منه. بذل جهده في إزاحة صورة الليلة الفائتة ونسيان حوار النادي الثقافي. وأصدر قراراً لنفسه بأن لا يذهب يوم الاثنين إلى الجامعة، سيمكث في الغرفة، وحيداً، يشرب شاياً كثيراً، ويستمع إلى الشيخ إمام.

في هذا اليوم ستموت والدته، ويتصل أحد أقربائه على سكن الجامعة. لم يتوفر في غرفته أي تلفون. سيطلبون معاودة الاتصال بعد ساعة، يأتي أحد العاملين في السكن ليبلغه أن أحدهم سيتصل عليه من «الوطن» بعد ساعة.

لن ينام تلك الليلة، سيبكي طويلاً، بكاءً متصلاً وحارقاً، وسيغفو عند طرف النهار. وسيشغل باله ذلك اليوم سلك الكهرباء والتلفزيون والعدم.

اليزابيل، مرة ثانية

أنجبت ايزابيل مساء يوم الاثنين في شهر آذار عام 1991 في مستشفى أريانا على شارع سانتا روزا في تشيلي.

ـ تانيا، سأسميها تانيا..

قالت للممرضة التي حملت الطفلة إليها على السرير.

وبكت.

بكت كثيراً في الأيام الأولى بعد الولادة، ظلت تحمل الطفلة بين يديها لساعات طويلة يومياً، تتأمل في الرائحة الطفلية وتشمها، لتبدأ تاريخاً جديداً في ذاكرة الرائحة التي طالما تصورت أنها ميزتها الأولى.

وفي نفس العام، قررت الإنتساب إلى جامعة في سانتياغو، لمواصلة الدراسة، لقد اطمأنت أن بينوشية إلى زوال، وأن صفحة بائسة ستطويها التشيلي عما قريب.

كان من الصعب أن يتخيل المرء أن البنت التي تحمل فماً إلهياً يمكن أن تصير أماً، وأن ابتساماتها المائلة على طرف فمها الشهي ستختفي فترات طويلة، وهي تبحث عن حياتها الجديدة باعتبارها أماً وطالبة.

لم تكن هي نفسها تدرك أنها ورثت عناد والدها الثوري إلا في تلك الفترة، حين أبلغتها والدتها أنها صارت ترى مثابرة والدها وملامحه وعناده في حركاتها وتصرفاتها.

أخذت والدتها تانيا تحت رعايتها، فيما ذهبت اليزابيل إلى يوم المعرفة، كما يُسَمَّى اليوم الأول من بداية الدراسة.

رفضت، وبالذات في الشهور الأولى، مصادقة أحد من الطلبة الذين احتفوا بها، حتى أنها صارت بالنسبة لهم، حين علموا أنها أم عزباء أكثر إثارة، فيما كان عقلها قد اختار درباً آخر تماماً. رعاية تانيا والتخرج بأسرع وقت ممكن. وكصلاة مقدسة كانت اليزابيل تروي لتانيا عن المغني فيكتور جارا الذي دخل الاستاد الوطني مع الآلاف من التشيليين يوم الإنقلاب ليغني لتشيلي «يا تشيلي يا بتلة زهرة متطاولة»، وعن الدبابات التي أحاطت بالاستاد وانقضت عليه، والتنكيل الجسدي بالمغني أمام الآلاف الذين كانوا يهتفون معه.

دخلت التشيلي مرحلة جديدة.

وبدا أن الديكتاتور فقد كل شيء، بعد عشرات آلاف الضحايا التي دفعت بهم التشيلي على مذبح الحرية، منذ هجوم الديكتاتور على القصر الرئاسي حيث يقف سلفادور الليندي بكامل زيه الرسمي وعلى صدره الشال الرئاسي وفي قلبه فقراء التشيلي الذين قضوا ليلتهم في بحيرات القلق والخوف، فيما تنشغل غرف العمليات الأمريكية التابعة للمخابرات بالترتيبات اللازمة لتُجلس الدكتاتور على كرسي رئاسة البلاد.

تلك المرحلة الدموية تُسَمَّى أيضاً «عملية نسر الكوندور»، الطائر المفترس الذي يعيش عشرات السنين، الذي يرى البعض أنه قد يعمِّر أكثر من اثنين وسبعين عاماً، وهي العملية التي اعتمدت على تصفية اليسار في مختلف دول أمريكا اللاتينية، تصفية جسدية.

إلا أن تانيا ستذهب للصف الثاني الإبتدائي في الوقت الذي تسقط فيه آخر إشارات الحكم المطلق، وما أن تصير في الخامسة عشرة ، ويتقد قلبها كقلب جدها وأمها ، حتى يتوقف قلب الديكتاتور.

تصبح البنت ذات الحاجبين الكثيفين إحدى أكثر الناشطات في البحث عن المفقودين أيام حكم الدكتاتور، تحمل صورة جدها وتطوف في شوارع سانتياغو مع أهالي الضحايا من مفقودين وشهداء ومعذبين. ثمانية وعشرون ألف ضحية عُذبت بأشد وأقسى أشكال التعذيب في عهد الدكتاتور، عُطلت حواسهم، وفُقدت أطراف بعضهم، وغُيب وعي العديد منهم حتى صاروا أشباحاً، كلهم يعودون الآن ليطلوا على شوارع سانتياغو، ليروا البنت ذات الحاجبين الكثيفين، وهي تحمل صورة رفيقهم، جدها، وتطالب بالعدالة.

وحين عقد إتحاد شباب اليسار إجتماعه العام، وقفت على خشبة المنصة وأنشدت:

«في كل العالم عندي حبيبة هي الشبيبة
يعلو صداها في كل مكان
عاش السلام دوماً والحرية».

رسائل مونتريال

توقفت رسائل مونتريال.

لا يعرف إن كان هذا التوقف مؤقتاً أم أن مريم إنتهت تماماً من الأمر.

اكتشف أنه بحاجة إلى أن تواصل مريم رسائلها أو برقياتها، لا يمكن أن يظل صندوق بريده فارغاً، لا يستطيع أن يحتمل إيقاع الحياة الجاف دون رسائل مونتريال، رسائل لها رائحة أيام الشباب، رائحة الثلج حيث ولدت قصتهما في عاصمة الدولة الاشتراكية الأولى في العالم. لا يريد أن يقطع كل خيوط الماضي. إن انقطاع رسائل مونتريال سيتركه مثل قطعة قماش جافة، علقت على حبل غسيل، وجفت أكثر مما احتملته خيوطها الخفيفة، ستذوي قطعة القماش، ستتمزق دون مطر. رسائل مونتريال تشبه المطر على جفاف النهارات وكآبة المساءات ووجع الدخول اليومي إلى مكتب الشؤون الاجتماعية.

في صباح يوم الثلاثاء 21 حزيران 2005 حين أغتيل جورج حاوي في (وطى المصيطبة) في بيروت، تذكر مريم، وأناشيد الحزب الشيوعي اللبناني، ووقوفها مع عشرات اللبنانيين على مسرح الجامعة في موسكو مطلع التسعينيات، يغنون وينشدون ويهتفون لحياة جورج حاوي. وفي

غرفتها كانت صورة بالأبيض والأسود لجورج حاوي يظهر أمام المنجل والشاكوش. لا بد أنها الآن في حداد وغضب كاملين.

تغضب مريم دائماً، قال لها مرة:

ـ لديك مخزون ثوري قادر على إعادة إنتاج ثورات كبيرة، مثل الكومونة وثورة أكتوبر.

أجابت، دون تفكير:

ـ لا، لا، بل مخزون يشبه ما كان قبيل ثورة سبارتاكوس. يعني تقريباً من ألفين وسبعين سنة. أنا سبارتاكوسية كمان.

تذكر أن عليه أن يبلغها مواساته باستشهاد جورج حاوي، يعرف تعلقها الأبوي بالرجل، وحديثها عنه حين ذهبت وهي طالبة صغيرة لحفلة تكريم الشبيبة، تذكر يده التي أخذت يدها الصغيرة وهو يبتسم في وجوه شبيبة حزبه، قالت: كاد أن يضحك حينما قلت له لما ناولني الدرع: شكراً يا رفيق.

ربما كانت في الرابعة عشرة، حين وقفت أمام جورج حاوي لتتسلم الدرع، لكنها ستحمل ابتسامته الواسعة ، ومحاولته إخفاء ضحكة مجلجلة حينما قالت له البنت: شكراً يا رفيق!

حين عقد الحزب الشيوعي اللبناني مؤتمره العاشر في شباط 2009 تحت شعار «من أجل حكم وطني ديمقراطي مقاوم»، تذكر مريم فقد كان هذا الشعار يشبهها كثيراً.

طالما أحبت مريم أن تكتب رسائل، وبطاقات معايدة، وأوراق

صغيرة تعلقها على حافة باب غرفته، أو على الطاولة، ملاحظات عملية وعاجلة، من قبيل «مررت ولم أجدك». وأحياناً بمسحة كوميدية في تقليد للفصائل الفلسطينية «مريم مرت من هنا» أو «البنطلون مكوي وجاهز في الخزانة»، وأحياناً تترك عبارات ثقيلة ومقاتلة وغاضبة، وجمل ثورية تشبه في ركاكتها قصائد الخمسينات السياسية، تكتب ما تفكر به، يحتفظ غسان بكل هذه القصاصات، كمن يبني ماض سيعود إليه لاحقاً، دائماً يراوده إحساس أن ما يحدث الآن هو ماض يطل عليه، باعتباره ماض مؤجل.

ـ أنا بحب أعيش في الواقع، في الآن وأنظر للمستقبل، أنت تحب الماضي، رجل ماضوي يعني، الأمور هيك ما بتركب على بعض.

ونتيجة عناد أو سوء فهم لم يقضيا ليلة رأس السنة عام 1993 مع بعضهما، خلاف نشأ دون علمهما، هكذا بكل بساطة تجادلا قبل يومين، حين خرجت مع عدد من زميلاتها إلى حفلة عيد ميلاد في سكن كلية الهندسة عند الطرف الشمالي للعاصمة، وقررت أن تمضي الليلة هناك، لأنه أبدى انزعاجه من ذهابها مع هذه المجموعة الكبيرة من زملائها الذين لا يعرفهم. أصرت وذهبت.

ولم ينتظرها كما كانا قد اتفقا في كافيتيريا الجامعة صباح ذلك اليوم، وحين دخلت قاعة المحاضرات الواسعة رأته يجلس بين زميلتين، فكرت هل يتقصد ذلك، لكنه ما أن لمحها حتى قرر أن يغادر القاعة قبل انتهاء المحاضرة، ويذهب مباشرة إلى السكن.

عاندت نفسها وبقيت. وبعد الانتهاء من المحاضرة ذهبت إلى الكافيتيريا، وأوغلت في عنادها لتنتقم من غضبه غير المبرر كما قالت، ستحتفل في غرفة نتاليا هذا العام، هكذا أبلغت جهاد، وطلبت منه أن يبلغ غسان أنها ستكون في غرفة نتاليا، وأضافت:

ـ احكيله إذا بحب يلحقني عند نتاليا، سأسهر هناك.

علمت بعد يومين، صدفة، انه قضى ليلة رأس السنة في سكن كلية الطب، وغادر الحفلة عند الساعة الثانية وعاد في الخامسة. وحين تصالحا بعد أيام، وهما يجلسان في قاعة المحاضرات، أبلغته أن ليلة رأس السنة هي فأل أسود، وأنها ترى أن شرخاً كبيراً قد مر بينهما، ولا يمكن للأشياء أن تعود كما كانت.

لم يفهم السبب الحقيقي وراء كل هذا الغضب الذي تحمله مريم في صدرها، ومصدر هذا العناد غير المبرر في كثير من الأحيان.

اليوم، والآن وهو على الجسر المهترئ، يستطيع أن يتسامح مع كل ذلك، الآن يعي حقها في الغضب والعناد، لأنه ببساطة لم يكن يمنحها ما تريد، طلبت منه في مرات كثيرة أن يطمئنها على المستقبل، على أي معنى مشترك لهما، أن يقول دون لف ولا دوران، دون فلسفات المثقفين الفارغة، أن يقول ببساطة أنه يحبها ولا يستطيع أن يتخيل حياته دونها.

لكنه بدل أن يقول ذلك كان يتصرف على اعتبار أن ما بينهما زائل، كان يبني ماضياً ليعيشه، وهي تعبت من كل ذلك. تعبت من قدرته على أن يكون وحيداً أياماً طويلة دون وجودها، بحجة الرغبة في العزلة والتأمل.

ـ ما كان في المخيم وقت للتأمل، الآن فرصة أني أستطيع أن أتأمل كما أشتهي، كأن أقضي أياماً وحيداً في الغرفة.

أجابها عندما سألته عن سبب تغيبه عن الجامعة ثلاثة أيام متتالية، و لا حس ولا خبر.

كل ذلك كانت تستطيع أن تحتمله، لكنها وقفت طويلاً عندما قرر الذهاب إلى البحر الأسود في العطلة الصيفية، مدة عشرين يوماً، دون أن يفكر حتى بسؤالها إن كانت ترغب بمرافقته أم لا، علمت لحظتها أن ما يجمعهما هش للغاية، وأنه لا بد سيبقى أياماً مع أصدقائه في صحبة «الناتاشات والكاتيات»، كما قالت.

الآن، متمشياً على الجسر المهترئ يتذكر كل ذلك، ويتذكر معاناتها من اجل الوصول للدراسة في موسكو.

لم تستطع مريم الذهاب من بيروت إلى دمشق عام 1989 كي تسافر إلى موسكو، لأن شقيقها خالد كتب مقالات صحافية ضد البعثيين السوريين ودور أجهزة الأمن السورية في لبنان، ولم يكن إتفاق الطائف قد وُقِّع بعد، الاتفاق الذي رسخ في أذهان اللبنانيين أن توزيع البلد طائفيـــاً هو الحل الأمثل لهم، لذا سافرت إلى عمّان، ومن هناك كانت تنتظرها تذكرة على خطوط طيران ايرفلوت إلى موسكو.

وما أن صعدت سلم الطائرة حتّى انتابها إحساس بأنها تذهب إلى بلد شقيق. تبتسم في وجوه المضيفات بسعادة بالغة، تحس بصلة ما، مع كل ما هو سوفييتي. وحين حامت الطائرة كي تهبط في مطار شيرميتافا

الدولي، كاد قلبها أن ينخلع، فها هي أخيراً في بلد الشيوعية الأول، البلد الذي تربت على ثقافته، تحس أنها تعرف عنه كل شيء. كانت تقرأ في بيروت، وهي مراهقة «قصة الرعب والجرأة» كل عدة أشهر، وحفظت عن ظهر قلب إحدى عناوينها الفرعية، تذكرته الآن أثناء هبوط الطائرة: إنك سلمت موسكو!!!

وشعرت بحنين جارف نحو باورجان مميش أوغلي، لا تعرف سببه حتى اللحظة.

أمضى والدها مساءات طويلة قبل وفاته في سرد تفاصيل زيارته إلى موسكو مطلع السبعينيات، تلك الزيارة التي كان ينظمها الحزب الشيوعي السوفييتي لكوادر الأحزاب الشيوعية، لعرض تجربتهم في بناء الاشتراكية من جهة، ولمعرفة توجهات تلك الأحزاب من جهة ثانية، عاد الوالد مبهوراً بالزيارة، محملاً بهدايا الميتروشكا الروسية وبدبابيس معلق عليها وجه لينين أو النجمة الحمراء كي يوزعها على رفاقه. اعتادت مريم وشقيقها خالد الذي يكبرها بسنوات، فيما ينام شقيقهم حسين في حضن والدته، أن يروا موسكو في عيني والدهما، مدينة من ثلج وحرية، وعلم أحمر كبير جلس في زاويته العليا قرب السارية شاكوش ومنجل، وتخيلا طويلاً في طفولتهما علم لبنان مزهواً بالمنجل والشاكوش.

لم تنتبه عند بداية عقد الثمانينيات أن ثديين صلبين، يقيمان على صدرها، صارا محط أنظار أولاد المدرسة، صارت نداءات الرغبة تتوهج، ما جعلها متوترة، بين عالمين غريبين، عالم تحلم به، ويهيأ لها أنها منذورة لقضية عليها أن تمنحها حياتها، كي يحكم العمال والفلاحون العالم، وعالم

يسحب يدها عند أسفل البطن ولا تستطيع رداً له.

تتألم في الصف الثاني الثانوي في درس الرياضيات من نار حامية تلسع أعالي الفخذ، تضع حقيبتها هناك، وتضغط عليها، لكن ما من شيء يتغير.

صارت البنات في الصف مهووسات بالتشكيلات المنحوتة على أجسادهن، صار الأمر يشبه الهياج الجماعي، فانتشرت حكايات المجلات وأوراق من كتب نوال السعداوي، وصور لممثلين يأكلون أفواه ممثلات، إلى أن أعلنت إحدى زميلاتها بما يشبه لقية سماوية، أن كل هذه الصور «هي فن تصوير»، تلصق فيها صورة ممثلة تفتح فمها مع صورة أخرى لممثل يفعل فعلها، وهكذا تصير صورة واحدة.

اطمأنت البنات للنتيجة، واستراحت مخيلاتهن إلى تحليل زميلتهن، لكن نداء الرغبة كان قد قطع شوطاً طويلاً، ولم يكن يوقفه سوى اجتماعاتها في حلقات تنظيمية، تلك الاجتماعات كانت طوق النجاة من سطوة التطلب للأخذ.

حين سردت له مريم ذلك، كان يعد رسالة البكالوريوس، جالساً خلف طاولة صغيرة على الجهة اليسرى من غرفته، فيما هي ممددة على السرير بموازاة النافذة الطويلة، التي تقارب أرض الغرفة.

بقي مستيقظاً حتى الصباح، غفت مريم، وحين سحبت الظلمة لونها، سمع رائحتها الكسولة تتمطى في سريره، بطمأنينة أبدية، واستسلام غامض.

رآها حدائق وبساتين وكروم، من تفاح وعنب ومخابيء عسل وسهول قمح، وبيت حكمتها خافت الإضاءة، ينز ماؤه قطرة فقطرة، حتى يندلع النبع ، وينطفيء الطفل المشدود كحارس عليه، بعد أن صاح وارتجف.

أصابع يدها تمسك شعره بقوة، وتلوح به ذات اليمين وذات الشمال، ثم تنهض مستديرة، فرساً تتنحنح جامحة، ترد رأسها، فيما تثبت قائمتيها على طرف الفراش. يجيء الليل والنهار والنجوم والقمر وكواكب أخرى، الأنهار والبحيرات والبحار والمحيطات وماء الله كله يتدفق كي يتقطر خيط ماء ثقيل. تظل رائحة مريم متروكة على الملاءات يومين كاملين يتشممها، ويرتبها ويعيد ترتيبها.

هي الآن في مونتريال، تدرّس اللغة العربية لأولاد وبنات، ربما يتهيئون للدراسة الجامعية، وينظرون إليها باعتبارها الناطقة بلغة أهل غزوة منهاتن. هي الآن بعيدة عنه، ليس بمقدوره أن يمد يده ليتحسس رأسها كما كان يفعل، ولا أن يمسك يدها الشقية ليقبل أصابع يدها واحداً واحداً، ولا يستطيع أن ينده باسمها لتجيبه أثناء نومها بتمتمات مائلة، ولا أن يشاكسها بما سال من فمها من رضاب على الوسادة.

قالت له: كنت أسمع عن شخص خرج ولم يعد، لكن لم أكن أتوقع أن يحدث هذا مع أخي خالد، ذهب ذات نهار ولم يعد للآن، هل تعرف ذلك الشعور بالألم الأبدي حين تتخيل أن شقيقك قد يكون في مستشفى للأمراض العقلية، أو سجيناً أو قتيلاً في قبر بارد لم يزره أحد، أفكر دائماً به، أفكر في لحظات غيابه الأولى، كيف فكر وماذا خطر بباله، وهل ينتظر أحداً ما ليخلصه.

غيابه مثل سماء ثقيلة سقطت منذ سنوات طويلة فوق رؤوسنا ولم ترفع. أفكر فيه وأبني له عالماً كاملاً، أحس به في أحيان كثيرة قربي، ولا يستطيع أن يمد يده ليصافحني، لو نعلم فقط، فقط إن كان حياً أو ميتاً.

تلك اللحظات يصمت غسان تماماً، فيما تواصل مريم بوحها الحر والوحشي، ثم يأخذها الصراخ والنشيج، إلى أن تهدأ ثورة روحها، بعد أن تنفض عن جسدها ثقل العجز.

سليم

ظلت أمل تحلم بسليم نوماً ويقظة.

تتواصل معه في اللحظات التي تناديها الشهوة وتصير أرضها مشققة وعطشى وتواقة للماء، تدخل إلى غرفتها وتغلق الباب خلفها، تفتح رجليها فوق حافة الكرسي العريضة، وتحك نفسها مغمضة العينين، تدعك بأطراف أصابع يدها اليمنى حلمتها دعكاً مؤلماً، وتجر مخيلتها إلى الإحساس المراهق القديم، حين كانت تركب فوق جسد سليم الفتي، وتواصل احتكاكها حتى يتدفق ماء الرغبة الحار، وتلتقط أنفاسها ثم ترخي ابتسامة رضى على فمها.

وحين دخلت في المرة الثانية إلى مديرية الشؤون الاجتماعية، لتجديد المعلومات المطلوبة سنوياً لإدراج اسمها في المعونات الشحيحة التي تقدمها الوزارة، جاءت إلى مكتبه، لم يكن ينظر في وجوه محدثيه خوفاً من أن يسبب أي إحراج لهم، إذا ما التقاهم صدفة في مكان عام، لكنه الآن وهو يقرأ اسم قرية دير البادي، واسمها الأول، لم يقاوم رغبته في رؤية وجهها، حين رفع بصره كان وجه سليم أمامه، في عينيها الصاحيتين تواً، في ارتجاف شفتيها الخفيف، وفي رائحة الذكريات العالقة كلعنة، أو

كطيف ثقيل يلف جسد أمل.

لم ينبس ببنت شفة.

ولم تفهم أمل نظرة الرجل المتعاطفة دون أي ابتذال، ولم تدرك للآن من أين جاءت ومضة حارة مرت بينهما، وكأنهما قريبان أو صديقان قديمان أو مشتركان في تواطؤ ما.

خرجت.

تذكر أنه لم يزر عائلة سليم إلا مرتين أو ثلاثاً بعد وفاته. لم يستطع أن يذهب إليهم، كلما مر من أمام بيتهم يرى سليم فوق السطح ينادي عليه كي يصعد، صار يختار طريقاً آخر، كي لا تثقله ذكريات المراهقة، للآن لا يستطيع أن يفهم كيف للحياة أن تخرج بحادث سير تافه من جسد حي وواثق وقوي مثل سليم.

يتذكر هوس سليم في العمل السري، كان قد قال له:

ـ اسمع، شكلي رح أنضم للحزب الشيوعي، بس أنا بحبش أقرا والجماعة شغلتهم قراية كثير.

حين تمشى على الجسر المهترئ تذكر أنه ذهب مع سليم إلى استديو ديفيد مرة يتيمة، كي يلتقط المصور لهما صورة وخلفهما ستارة بيضاء، وأنهما لم يتمكنا من الذهاب لإحضارها بعد أسبوع، حسبما طلب صاحب الأستوديو، لأنهما لم يملكا مالاً تلك الأيام. نسيا الصورة، ومات سليم. ولم يجرؤ غسان على الذهاب وحيداً، كي لا يعيد تفاصيل ذلك اليوم والضحكات الهستيرية التي أطلقها سليم في شارع المدبسة في

طريق العودة إلى المخيم.

فكر، لو ذهب غداً، هل سيجد الصورة؟

مرت سنوات كثيرة على ذلك، تبدلت وجوه الناس، وأصحاب المحال، وأنتشرت محلات بيع الجلابيب تحت عناوين ملتبسة، ومحلات بيع كاسيتات المواعظ الدينية، حيث يسمع المارة أصوات رجال غاضبين يشتمون ويتوعدون ويهددون، ويؤكدون أن لديهم الحقائق الكاملة التي تثبت أن المجتمع صار فاسقاً، وأن كل ما يحدث للناس هذه الأيام مرده إلى ابتعادهم عن الدين الصحيح، الذين هم وحدهم يعرفون الطريق إليه.

إلا أن ستوديو ديفيد بقي على حاله، في التفرع الثاني من شارع المدبسة المؤدي إلى طريق الجامعة.

إذا وجد الصورة، سيقص صورته ويبقي على صورة سليم، وسيضعها أمامه على المكتب في انتظار أن تأتي أمل مرة أخرى، لا بد أنها تحتاج أن ترى وجه سليم، أن تعيد تشكيل وجهه، أن تنظر في عينيه، أن تستحضره واضعة صورته أمامها، قد يساعدها ذلك على الاقتراب أكثر في لحظات اشتعال الحاجة وهبوب الألم.

حين التقى صدفة بنهى، أخت سليم، يوم الإنتخابات التشريعية في الخامس من كانون ثاني عام 2006 في مدرسة بنات بيت جالا الثانوية، قالت له وهي تبتسم بمودة، أنها ستصوت اليوم لقائمة البديل اليسارية كرمى لعيني شقيقها سليم. سألها عن الأسرة فرداً فرداً، وتجنب النظر

إلى عينيها، وكأنه يحس بالذنب أنه ظل حياً، ثم دخل إلى مركز الاقتراع.

في منتصف الليل، وحين بدأت النتائج بالظهور، كانت حركة حماس قد حصلت على أغلبية مقاعد المجلس التشريعي، وذهبت ورقة تصويت شقيقة سليم معه إلى القبر.

أوقفت وزارة الشؤون الاجتماعية صرف المعونة المالية المتواضعة أصلاً لأمل وأطفالها، ظلت السلطة الوطنية تعاني من حصار مالي خانق، وتوقفت رواتب الموظفين واقتصرت المعونات على الأشد حاجة، ضمن برنامج صار يعرف باسم «أفقر الفقراء».

كان أولادها يكبرون، فيما يتعالى الجدار الذي تبنيه إسرائيل حول بلدتهم، صارت تلال الزيتون تبتعد عنهم، ولم يعد أحد منهم يرى الكلاب وهي تجري قرب ماء النبع عند أسفل الوادي.

ظل الاسمنت القبيح يجرح الأرض، بترابها وحجارتها وزيتونها، وما عادت حديقة قرن الغزال عند طرف السهل قريبة منهم الآن.

تلك الحديقة كانت ملاذاً لأمل، تذهب اليها برفقة أولادها كل صباح يوم جمعة.

وحين انتصب الجدار، وصار من المستحيل عليها الوصول إلى طرف السهل، زرعت خلف غرفتها نبتتين من قرن الغزال، ورعتهما بأدعياتها وأصابعها الطويلة وشهواتها المخبأة.

وظلت تدير أمورها بصمت.

توجهت إلى مكتب نقابات العمال تبحث عن عمل، وبدأت في

تنظيف عدد من مكاتب المؤسسات في عمارة (أدمون) على شارع المهد.

تتوجه صباح كل يوم في الساعة السادسة إلى المدينة، تنظف ثلاثة طوابق تضم سبعة مكاتب مختلفة، لشركات وأطباء.

تدخل بعباءتها السوداء وملامحها الساكنة، وعلى جبينها تعب أزلي، لا تحدث أحداً، ولا يخطر ببال أحد أن بمقدوره أن يفتح حواراً مع المرأة التي تجيء مبكراً، وتأخذ بالعمل مباشرة، بعد كلمتين فقط: صباح الخير.

تلم أغراضها عند الساعة العاشرة، وتذهب إلى مكتب شركة الأسهم، تجلس في المطبخ، تصنع قهوة ثقيلة لها ولسلوى، السكرتيرة المتأنقة أكثر مما تحتمله شركة الأسهم، تشربان القهوة، وتتبادلان حديثاً يومياً لا أحد على وجه الدقة يستطيع أن يجزم بمضمونه.

صارت تجلس بجانب سلوى خلف المكتب نصف ساعة يومياً، تتعلم أبجديات الكمبيوتر، وبعد تسعة أشهر ستسجل في التربية والتعليم للالتحاق بامتحان الثانوية العامة.

بعد اجتيازها الامتحان، بعلامات مقبولة، تنضم أمل إلى دورة سكرتاريا متقدمة ينظمها مركز المستقبل.

جهـاد

قريباً من دوار الساعة في رام الله التقى مع ناصر، أحد الأصدقاء الذين درس معهم في موسكو، وبعد دقيقتين فقط من تبادل التحيات، أبلغه أن جهاد مات، هناك في موسكو.

في طريق العودة إلى بيت جالا، لم يفكر بأي شيء آخر. لم يستطع أن يصدق ذلك. تذكر تلك الزيارة التي جاء فيها جهاد إلى بيته في بيت جالا ليقنعه باستكمال دراسته في موسكو لأنه حصل على بعثة دراسات عليا.

ـ حصلت على بعثة لي ولك، إذا أحببت سارتب كل شيء، ما رأيك؟

ـ لا أفكر بهذا، خلص لقد اكتفيت من موسكو.

جاء يزوره في عطلة الصيف، جاء كعادته بصخبه وضحكاته وتعليقاته الساخرة والمرة، التي طالما حاول أن ينتقم من خلالها لطفولته المعذبة منذ وفاة والده ووالدته وتركه مع أخواته الصغيرات تحت رعاية جد كان قاسياً لدرجة غير معقولة. وفي إحدى أمسياتهم الطويلة في كانون الثاني عام 1992 في المبنى الرئيسي لجامعة لومونوسافا، سيعلن جهاد أنه لم ولن يكره أحداً كما كره ويكره جده:

ـ الله لا يرحمه!

قال وسكت. وكادت دموع حارقة أن تسقط من عينيه، إلا أنه مباشرة أطلق ضحكات صاخبة وممتدة وطويلة قطعتها لحظات ألم. ثم واصل سرد تفاصيل مرعبة عن حياة طفل تربى مع أخواته في بيت مليء بالكراهية. عذاب لا يُنسى مارسه جد على أحفاده بدافع غامض، لا يعرف جهاد سببه حتى الآن، كما لم يبلغه أحد بأسباب وفاة والديه.

لما وصل جهاد إلى موسكو، نزل في السكن السادس المخصص للطلبة الجدد، على الطابق الخامس، ومن هناك كان يطل من شباك غرفته على طرف الغابة الصغيرة التي تحيط بسكنات الطلبة، رأى كلبة صغيرة تتشمم التراب، قرر حمل قطع من السجق الروسي والقاءها من النافذة، وفي الأيام التالية واظب كل صباح على النظر من النافذة ليجد أن الكلبة تقف في نفس المكان، واعتاد أن يرمي لها ما تيسر من طعام.

كلما نزل للذهاب إلى الجامعة، يحمل في يده بعض الطعام، ويتجه خلف السكن حيث تقف الكلبة، يرمي لها ما بيده، صارت تنظر إليه في إشارة شكر، وعلى غير ما توقع اقتربت منه وأخذت تتشمم قدميه وتحرك ذيلها، مد جهاد يده إلى رأسها، وذهب.

إعتاد جهاد أن يذهب كل صباح خلف السكن، وصارت الكلبة تنتظره وتركض تجاهه كلما اقترب وتقفز على رجليه.

لم تكن الجامعة بعيدة عن السكن السادس، يفصل بين السكن ومبنى الجامعة شارع ميكلوخا ميكلايا، حاولت الكلبة أن تلحق به إلى الجامعة، إلا أنه بذل جهداً كبيراً ليمنعها من ذلك. فهمت الدرس، وظلت تنتظره

صباحاً في مكانها.

طلبت مدرسة اللغة الروسية «ليرا شاكيرافنا» من الطلاب، بعد ثلاثة أشهر، أن يتحدثوا بالروسية عن السكن، وحينما جاء دور جهاد بذل جهداً في محاولة وصف نافذة غرفته والكلبة التي تقف تحتها.

ـ «ما اسم الكلبة يا جهاد؟» سألته.

ـ لا أعرف.

ـ إذَن عليك أن تمنحها اسماً.

طلب جهاد من ليرا شاكيرافنا أن تعطيه خيارات، استوقفه اسم «ماشا».

ـ «اسمها ماشا»، قال.

الآن، يحضر جهاد في ذاكرة غسان كلما رأى كلباً أو قرأ مقالاً سياسياً في إحدى الجرائد.

كان جهاد قارئاً نهماً لكل المقالات السياسية التي تصل يديه، يمتلك حاسة سياسية عالية، إلا أنه بعد الإعلان عن نتائج إنتخابات مجلس الطلبة الفلسطينيين للسنة الدراسية الأولى، جاء في المرتبة الثانية بعد غسان نصار، صديقه.

ـ «لو نجح أي أحد آخر غيرك، لقتلته». وضحكا.

لم يكن معتاداً في تلك الفترة أن تكون علاقات الفلسطينيين ببعضهم بعيدة عن إطار الانتماء الحزبي، إلا أن غسان وجهاد استطاعا أن يشكلا ثنائياً خاصاً، لطالما فاخرا به أمام الآخرين.

حتى في لحظات الصراع حول الإنتخابات الطلابية اللاحقة بين الفصائل لم يختلفا، أعلمه جهاد أنه لأول مرة في حياته يتعرف على يساري ويصادقه:

- ببساطة طوال عمري أخاف وأحاذر منهم، أقلق منهم ولا أحب أن أراهم.

ظل جهاد مهووساً لأشهر طويلة في الإعداد لرسالته حول يوغوسلافيا. اختلف مع المشرف على رسالته، وسهر ليال طويلة يشرح لغسان التقسيمات اليوغسلافية المعقدة، منهياً في كل مرة مداخلاته بأنه صار خبيراً في الشأن اليوغسلافي، ثم يضحك ويتحمس من جديد عند النظر إلى خارطة يوغسلافيا.

كان يطيب له أن يتحدث عن توزيعات يوغسلافيا بصوت عال، ولا يجد سوى غسان مستعداً لسماع هذا الكم غير المعقول من التعقيدات، ويعيد على مسامعه صربيا، كرواتيا، سلوفينيا، البوسنة، مقدونيا، الجبل الاسود وهكذا حتى يتعب. قال أن المشرف، يسعى كي يجعل رسالته تتبنى الموقف الروسي من الأزمة، إلا أن الأمور كانت مشتعلة هناك، ويحاول جهاد أن يلتقط الأسباب الحقيقية لإندلاع الحرب. صار يذهب للتاريخ ويعلن أن كل حروب العالم تبدأ وتنتهي من يوغوسلافيا، صار هذا ما يشبه حقيقة ثابتة بالنسبة له. لكنه تردد أخيراً في مواصلة الرسالة وفكر بتغيير الموضوع.

هل كان يجيء جهاد في مساء كل يوم من آخر السنة إلى السكن

الجامعي، حاملاً في معطفه زجاجة (ستاليتشنايا)، طالباً منه شرب نخب العام؟

ـ «نخب عام مضى أم عام سيأتي؟» سأله غسان.

ـ نخب بين عامين، نحن الآن كأننا على درج طويل طويل طويل، نجلس على آخر درجة، لكننا لا نعرف إن كانت الدرجة الأخيرة من العام الذي يمضي، أم الدرجة الأولى من العام الجديد.

ويشربان فودكا مدة نصف ساعة.

حتى الآن وفي مساء كل آخر يوم من السنة، يشعر غسان أن جهاد قريب منه، وسيطل بزجاجة الستاليتشنايا، ليشرب نخباً صار يعرف الآن أنه لأعوام خلت.

رحيل اليزابيل

تأخذ اليزابيل أصابعه في فمها، واحداً واحداً، تجلس مباعدة ما بين فخذيها وهي تطلق ضحكات صغيرة وقحة وتطلب منه أن ينظر إليها، أن يتفحص عضوها بعينيه، وكلما نظر بشهوانية أكثر كانت تطلق أصوات محمومة متتالية، وتهز فخذيها في حركة سريعة، ثم تطلب منه فجأة وبصوت يحمل كل معاني نفاد الصبر:

ـ أدخلني!

وما أن يلجها، حتى يشتعل فمها بكلمات إسبانية لا يفهم منها شيئاً، يتخللها لفظ اسمه بخفة وعجلة، فيما يأتي صوت خوليو ايغليسياس موجوعاً من المسجلة.

يفكر العجوز الآن بأغنيات خوليو ايغليسياس تلك، يحاول أن يستعيد كلمات تلك الأغنية التي حاولت اليزابيل أن تعلمه إياها، واستطاع أن يحفظ منها جملتين فقط، الآن بقيت كلمة واحدة في ذاكرته، (ابرا ساميه)، وقد وجد العجوز نفسه يردد هذه الكلمة، وهو يغلق باب مكتبه في مديرية الشؤون عند نهاية الدوام، ولما لاحظ ذلك، استغرب

كيف تسللت هذه الكلمة من جديد، بعد كل هذه السنوات التي مرت عليها.

قبل أن تغادر اليزابيل موسكو بثلاثة أيام التقته عند مدخل السكن رقم 11، وهو يتمشى باتجاه شارع ياسنيفا. كان مساء موسكو تلك الليلة بارداً، وهي تلف على رقبتها الكوفية كعادتها، وطاقية صوف واسعة تغطي أذنيها، تلف جسدها بمعطف قصير أسود يحشر جسدها على نفسه.

ـ «كودا تي؟» إلى اين؟

ـ «ني كودا!» إلى لا مكان!

ومشت بجانبه، قطعا شارع الجامعة وواصلا السير في صقيع المساء، وحيدان يعبران سيراً وكأنهما ذاهبان في مهمة واضحة، أعلنت له دون مقدمات أو تفاصيل أنها ستذهب إلى التشيلي بعد يومين. توقف، محاولاً أن يبدي اهتمامه، إلا أنها واصلت السير وأشارت له بيدها أن يسير بجانبها، لم تتحدث طويلاً، حاول أن يقول لها إنه سعيد بأنهما تعارفا وأمضيا وقتاً مع بعضهما، إلا أنها اختصرت الأمر أيضاً، طالبة منه أن لا يشعر بأي ذنب أو إحساس بأن عليه أن يقدم أي تبرير.

ـ فقط، أحببت أن أبلغك أني سأسافر إلى التشيلي، قد لا نرى بعضنا إلى الأبد.

مر على غرفتها قبل أن تتركها بساعات كي يودعها كما اتفق معها، لم يجدها، قالت له جارتها في الغرفة المقابلة أنها انتظرته ثم قررت الذهاب

كي لا تتأخر على الطائرة.

قالت مريم له أن تصرفه صبياني وغير مسؤول ومهين لها، وصرخت في وجهه:

-يعني كل ما واحدة من شرموطاتك بدها تسافر بدك تروح تودعها؟

لاذ بالصمت، صمت يشبه صراخاً وغضباً فالتان من عقالهما، لم يقل كلمة واحدة. خطر بباله أن يذهب إلى جهاد، وما أن حاول أن يغادر حتى بادرت مريم إلى تبرير ما قالته، وتقديم تفسيرات له، كلها تعني أنها لم تقصد استخدام تلك الكلمة كما فهمها، حاولت بكل ما استطاعت أن تلطف الأجواء، ثم اعتذرت.

اليزابيل الآن في التشيلي.

مريم في مونتريال تدرس اللغة العربية، وترسل برقيات تشبه الأخبار العاجلة. غسان يواظب على الإستيقاظ باكراً ليهبط من بيت جالا إلى مكتب مديرية الشؤون الاجتماعية، والأخبار تجيء عن زيارة محتملة في الغد لأريئيل شارون إلى المسجد الأقصى، يستمع إلى صوت سياسيين يندّدون ويحذرون. لم يتخيل أن انتفاضة جديدة ستندلع وتغير حياة الناس من جديد.

مع نهاية أيلول عام 2000، إندلعت مظاهرات حاشدة في مختلف المدن والقرى والمخيمات، يتوجه الناس إلى نقاط التماس حيث تتواجد قوات الإحتلال، ترد إسرائيل على التظاهرات السلمية بوحشية كبيرة، يموت ناس كثيرون في الأيام اللاحقة، تصبح البلاد صوراً مباشرة تنقل

إلى جميع دول العالم، يتعرف المشاهدون على شوارع ومباني وسكان المدن الفلسطينية، يرون الموت يومياً يحصد أرواح الفلسطينيين، يتفرجون عليهم، يتضامنون معهم وجدانياً، وتدريجياً تستعد دولة الاحتلال لأكبر عملية عسكرية في الضفة الغربية منذ عام 1967، تسمى عملية الجدار الواقي. تمر دبابات الميركفا تحت الشبابيك، والمدرعات العسكرية والرشاشات الثقيلة تجرح ليالي ونهارات الضفة الغربية، فيما يواصل ياسر عرفات من مقر المقاطعة إطلاق نبوءاته عن النصر والحرية، تتحرش أذرع الجرافات بنافذة غرفته المتواضعة، ويطلق الجنود القادمون من كل دول العالم قنابل الصوت والرصاص الحي والقذائف على حائط يجلس خلفه ياسر عرفات، معتصماً بإيمان رسولي بأن النصر والحرية في طريقهما إلى فلسطين، طال الزمن أم قصر.

يموت الناس على شاشة «الجزيرة»، تستطيع أن تسمع آخر تأوهاتهم أو وصاياهم أو أن تلتقط نظراتهم الأخيرة إلى العالم، صار الموت قريباً كما لم يكن من قبل. و من جديد، أطل وجه الاحتلال واضحاً بكامل ملامحه المشبعة بالكراهية والرغبات المريضة في الذبح، وستتوقف صورة «محمد الدرة» و«فارس عودة» على الشاشات، كي يتأكد المصور وصاحب المحطة والقاتل والمشاهدون وأم الولد ورؤساء المؤسسات غير الحكومية وممثل الأمم المتحدة.. كي يتأكدوا كلهم من وضوح الجريمة، ولا أحد يكترث ولا ما يحزنون.

كانت اليزابيل من سنوات طويلة قد سألته قبل سفرها وهما يتمشيان تجاه السينما:

ـ هل لديك عنوان في فلسطين، هل يمكن مراسلتك مثلاً؟

ـ صندوق بريد 735 بيت لحم.

ـ «هل أكتب فلسطين؟»، سألته.

الآن تشاهد اليزابيل فلسطين على شاشات التلفزيون. فيما تحاول أن تشرح ما تشاهده لإبنتها تانيا، المولودة بهاجس الثورات، وتحمل في دمها جينات جدها الذي ذبح في معركته من أجل حرية تشيلي التي صادرتها يد الجنرال.

النافذة الخشبية

كانت تقف على النافذة الخشبية، تلفها الحسرة، وعلى وجهها أسى قديم، ملامحها دقيقة، سمراء، كف يدها تسند وجهها المكروب، يراها غسان كلما مر من أمام بيتها، عمره سنوات قليلة، ربما تسع سنوات، فيما البنت التي على الشباك، تكبره على الأقل بثماني سنوات أخرى، يحس بألم يسيل من النافذة كلما مر من أمامها، وبعد شهر تقريباً أغلقت النافذة الخشبية ولم تفتح إلى الأبد.

سمع خالته تسر بصوت مكتوم ومرتجف وهي تستغفر الله أن فاطمة حامل. وأن أهلها قد أرسلوها إلى مكان لا أحد يعلم عنه شيئاً. حمل وجه فاطمة معه، وصارت تلك الجمل الصغيرة التي قالتها خالته لأمه سراً ظل يحمله حتى اللحظة.

وبينما يتمشى الآن على جسر مهترئ تذكر وجه البنت السمراء، ورغب لو يعلم أي شيء عنها، إلى أين مضت، وهل تغيرت ملامح حزنها الأبدي.

لم يسمع أحداً في المخيم يتحدث عن الأمر، وبدوره لم يبح بما علمه إلى أي كائن. ظل يحتفظ به لنفسه، إلا أنه لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه

من التفكير في فاطمة طوال كل تلك السنوات وحتى اليوم.

حين درس في الجامعة، كان أمر مثل هذا يمر دون أي ضجيج، تحمل البنات ويجهضن أو يحتفظن بالأجنة، ولا يقفن على الشبابيك ولا تهدد حياتهن، ولا يختفين إلى الأبد. «لو عاشت فاطمة هنا لانتهى الأمر بطريقة مختلفة»، قال لنفسه.

قال لمريم وهما يعدان وجبة عشاء خفيفة في السكن، أن عشرات البنات في العالم العربي وقفن على شبابيك خشبية يتحسرن على مصائرهن المهددة، لمجرد انكشاف علاقة حب، لا ينمن وهن قلقات على ما ينتظرهن من عقاب لاقتراف قلوبهن فعل الحب. إن مجتمعات تكره الحب وتفضل أن تزوج البنت لمن تكرهه على أن تختار من تحبه، لا يمكن أن تكون مجتمعات سوية، يبدو يا مريم أن الخلل جيني.

وأعادت مريم على مسامعه نظريتها حول التغيير في العالم العربي، ساردة الاحتمالات الثلاثة المعقولة حسب رأيها.

ـ إن وجه بنت خائف يطل من نافذة خشبية في أي بيت عربي، هو علامة على قهر وجريمة ستقع وضحية لا تملك من أمرها شيئاً.

لكنه لم يحدثها عن فاطمة، تذكر الآن أنه لم يحدثها عن ما رآه، حينما كان طفلاً في التاسعة يمر من حارة الفرن تحت نافذة بيت فاطمة الخشبية. وأن غصة بعيدة ما زالت عالقة في حلقه، ورغبة مدفونة في معرفة مصير تلك السمراء ذات اليد التي تسند الوجه الغائب.

إلا أنه قرأ لها نصاً دون إضافات أو تغيير، كتبه بعد أن قضى تلك

الليلة مع ناستيا، حين تذكر فاطمة فجأة ودون انتباه :

ـ اسمعي يا مريم..

وقرأ: «الرجال على طرف البلدة الجنوبي، يحملون العصي وسكاكين المطبخ، يدخنون وينتظرون.

المساء يدخل حاراتهم ببطء لئيم، ونساؤهم في البيوت يرتبن الفراش للمرة العاشرة، ويسكبن على عتبات غرف النوم إشارات ماجنة.

خافتة أضواء البيوت، كأنها لا تقول ضوءاً بالمرة.

الكلاب والقطط وما حولها من دجاج وماعز صمتت ترقباً. وأسدلت الكلمات الأخيرة على منامات الأطفال الذين يبولون كل خمس دقائق. لا لشيء إلا أن يروا ما يفسر لهم صمت الكون. حتى أرغفة الخبز بالزعتر سكتت رائحتها، ولم تصل.

أُلبست العذارى سراويل الأخوة وأبناء العم، وطُليت وجوههن بالسواد، وطُلب منهن أن يكسرن بأسنانهن حبات الجوز، فتناثرت مخلفة أفواهاً مشوهة، لا تصلح للقول أو الأكل. وتحت أشجار التين المسنة، تجمعت العباءات بمن فيها من رجال وزمن، تحلقوا حول عمرهم، حلوقهم جافة ومرة، وشفاههم لا تنبس ببنت شفة، أما الحمحمات التي اعتادوها كلما تحركوا فقد غابت تلك الليلة.

الرجال على طرف البلدة شفهم البرد والخوف والسكون، وظهرت أول تثاؤبة دون قصد، وما أن اشتد السواد واندلق على حيطان البلدة، حتى توالت التثاؤبات تدريجياً، فقدت خجلها وصارت فاضحة.

البنات تحررن قليلاً من المشدات المحكمة حولهن، وخلعن الأحذية، عجوز تحت التينة القديمة تنحنح وحمحم وما شابه ذلك من أصوات.

ليس عتمة تلك التي دخلت البلدة فحسب، كان طيفاً زائراً ومشتاقاً، له هيئة البنت التي أحبت الأمير، الطيف دخل حوش الطفولة وسحب من البئر ماءً وتعلق على نوافذ واطئة، كي يرى من بالداخل. أراد أنيساً من أيام الصبا، حديثاً عابراً عن العافية وجرار الزيت والزبيب الذي لا يجف، أو عن سكاكين المطبخ التي ذبحته ورمته خارج المقبرة.

أغلقت الغيوم سماء البلدة، والإشارات الماجنة تحركت على عتبات غرف النوم. وهناك، خارج حدود البلدة لم يكن أحد على يقظة، فالناس نيام أو يفعلون فعل الليل، ليس ثمة من ضجيج. التل آمن على نفسه، وبساتين الفلاحين تستحلم بالندى. الزواحف في جحورها. الشمس غنوجاً تخرج من خلف آسيا».



حين أستأجر شقة في بيت جالا بعد عودته من موسكو، حاول أن يرتب ما بقي في حقيبته من تذكارات صغيرة، ويضعها على حواف النوافذ أو على رفوف المكتبة المتواضعة. وجد هذا النص وأوراق أخرى مكتوب عليها بخط اليد ملاحظات يومية حول الأكل وتذاكر السينما والبنطلونات المغسولة. خط مريم الذي يعرفه ويحفظه مثل صورة مقدسة، بطاقات معايدة عليها صور أشجار بتولا وسماء صافية، شال بلون النبيذ لفته اليزابيل على عنقه وهو يغادر غرفتها في صباح يوم هبطت

فيه درجات الحرارة إلى سبع وعشرين درجة تحت الصفر، مقالات سياسية طويلة كتبها جهاد في انتظار نشرها في إحدى الجرائد، وصورة مع ماشا عند طرف الغابة. في إحدى الصور يلبس جهاد معطفاً طويلاً أسود، عليه نقاط بيضاء، فيما ماشا ترفع قائمتيها و يديها إلى صدره، محاولة أن تلعق وجهه. ومشط صغير، وتفاصيل أخرى ظل غسان يحتفظ بها كعلامة على حياة أخرى عاشها ولا يستطيع الفكاك النهائي منها. ظل موزعاً بين السنوات الأولى في المخيم وسنوات دراسته الطويلة في موسكو وعودته إلى البلاد ليعمل في مديرية الشؤون الاجتماعية، ذكريات متفرقة وصور لوجوه لا تغيب، ولا يستطيع نكرانها، مثل وجه فاطمة المعلق على كف يدها عند طرف النافذة الخشبية.



العجوز ينزل عن الجسر المهترئ



-1-

نزل العجوز عن الجسر المهترئ، متكئاً على عصا الذكريات، يهش بها أوهام وتسابيح وهمهمات وتأملات وأمنيات تتساقط عن يمينه وشماله، يمضي بلا رغبة، في جيبه ندم كثير، يمد أصابع يده اليسرى ويحرك ذرات الندم، قلبه مثل قشرة برتقال، وعيناه متعبتان وضجرتان خلف النظارة الطبية، وقبل أن يصعد إلى شقته، توقف فجأة ليسأل نفسه:

لماذا تركت مريم تذهب؟

وعندها أدرك أنه لا يعرف سبباً لذلك، لا يعرف سبباً واضحاً واحداً لذلك، انتابه غضب وحزن وقلق شده من رصانته ولوح به، ورمى على ماء قلبه الساكن مزقاً من نار، تلفت حوله، أراد أن يساعده أحد ما، أن يعيد ما يستطيع ترميمه من خراب خلفه، دون أن يعي ذلك. أراد أن يكتب لها وأن يتصل بالجامعة وأن يطلب من ابن شقيقه أن يبحث عنها في جوجول، عنها وعن اليزابيل (فقط للعلم)، أراد أيضاً أن يتصل بها، الآن يريد أن يسمع صوتها، أن يسمع وقع رنين لهجتها اللبنانية الآسرة، أن يشم الحروف المقاتلة على البيانات التي لطالما احتفظت حقيبتها بها. أراد أن يسمع مرة ثانية صوتها وهي تدندن له في الطريق إلى السكن كل

أيلول من كل عام:

ورقو الأصفر شهر أيلول تحت الشبابيك
ذكرني ورقو دهب مشغول ذكرني فيك
رجع أيلول وأنت بعيد بغيمي حزيني قمرها وحيد
بصير يبكيني شتي ايلول ويفيقني عليك يا حبيبي
ليالي شتي أيلول بتشبه عينيك
يا ريت الريح إذا أنتا نسيت حبيبي أول الخريف وما جيت
ينساها الحور وقمرها يغيب وليلا يطول
ونبقى حبيبي غريبي وغريب أنا وأيلول».

أصابه دوار. وشعر أن قلبه معلق على حبل غسيل.

وفطن أن الحياة أفلتت منه، وأن سنوات وأياماً طويلة مرت دون أن يحياها، ولا أن يتأمل بها، عجولاً ظل طوال السنين، يرقب الأشياء تمر، كأنه معطل عن الفعل. انتابته حالة خوف شديد، حتى كاد أن يرتجف، أيعقل أنه لم يعش حياته أبداً !! أنه أمضى كل هذه السنوات يترقب ما لا يحدث وما لا يجيء !!

سيظل غسان نصار حائراً مع أسئلة عالقة، تتدلى أمامه مثل مشانق كئيبة، ازدحم مكتبه بعد وصول زميل آخر واحتلاله نصف المكتب، كان زميلاً هادئاً وصامتاً، وبارداً لدرجة أن غرفة المكتب الضيقة باتت تحتاج إلى تدفئة صيفاً وشتاء.

كعادته يمر ماشياً إلى دوار التربية والتعليم ثم شارع القدس الخليل إلى أن يصل باب الزقاق، وفي أيام كثيرة يواصل طريقه مشياً تجاه شقته في أعلى بيت جالا، يرى كلاباً صغيرة ضالة تركض في اتجاهات مختلفة، تريد أن تقطع الشارع، إلا أن زحمة السيارات تعيقها.

تذكر يوم قررت ماشا أن ترافق جهاد رغماً عنه إلى الجامعة، رغم محاولاته المتكررة لمنعها من ذلك، إلا أنها صممت في إحدى المرات أن تعرف أين يذهب صديقها صباح كل يوم، وما أن اجتاز جهاد الشارع وتوقف لينظر نحو ماشا بالاتجاه المقابل، حتى قفزت نحوه بقوة، لتدهسها سيارة لادا مسرعة.

ما أن يصل حتى ينام ساعتين كاملتين، غدت حركته في أضيق نطاق ممكن، وفي آخر الليل يسمع عربات محملة بعلامات استفهام تدلقها أمام باب شقته، تدخل علامات الاستفهام واحدة واحدة، لا يستطيع مطاردتها، وعندما يرن جرس الهاتف يعرف أن محمد يتصل من رام الله، وسيدعوه لزيارته ربما.

-2-

تانيا الآن موجودة على الفيس بوك.

تضع صورة تشي جيفارا المشهورة، وتكتب عبارات معادية للرأسمالية. حصلت على منحة من خلال مؤسسة أهلية للالتحاق في دورة تدريبية تنظمها «ايكويتاس» حول حقوق الانسان في بلدة قريبة

من مدينة مونتريال، لمدة شهر كامل. حضرت مع عشرات من مختلف دول العالم للمشاركة في الدورة، تتحدث الإنجليزية بلكنة أهالي أمريكا اللاتينية. قسم المنظمون المشاركين إلى عشرات المجموعات، كل مجموعة تحتوي على مشاركين من مختلف قارات وأغلب ثقافات العالم.

البرنامج التدريبي مزدحم، ومع بداية كل يوم تقريباً يتجمع المشاركون في قاعة واحدة للاستماع إلى محاضرة متخصصة، وقفت تانيا في إحدى المحاضرات لتسأل عن قطعة الأرض التي بنيت عليها الكلية التي يدرسون فيها، كان سؤالاً استفزازياً:

ـ هل هذه الأرض التي نقف عليها الآن، تعود لسكان كندا الأصليين؟ يا ترى أين هم الآن؟

سكت المحاضر، باذلاً جهداً كبيراً في رسم ابتسامة على وجهه الشمعي، صفق لها عدد من الطلاب من أفريقيا وأمريكا اللاتينية وجزء من طلاب العالم العربي. تحدث المحاضر عن عالمية حقوق الإنسان، وعن حقوق الأقليات واحترام الثقافات وحق الاختلاف.

ستحضر مريم إلى الكلية لتوزيع بيان على ممثلي المؤسسات الحقوقية حول المفقودين في لبنان، وعن الثورات العربية والديمقراطية في العالم العربي، تقف على باب القاعة في اللحظة التي تسأل فيها تانيا المحاضر عن ملكية الأرض، تبتسم، وتنتظر انتهاء اللقاء.

ـ مرحبا، من أين أنت؟

ـ «من التشيلي». قالت تانيا بابتسامة عريضة وواثقة. «وأنت؟».

ـ من لبنان، هل تسمعين عن لبنان؟

ـ سمعت عنه.

ـ ماذا سمعت؟

ـ أمي حدثتني عن أصدقاء لها من لبنان ومن فلسطين، وعن احتلال الأرض هناك.

ـ نعم في احتلال إسرائيلي لفلسطين منذ عشرات السنين، والفلسطينيون مشتتون في كل أنحاء العالم العربي، وقد أسعدني أنك ترتدين كوفية فلسطينية وتي شيرت لجيفارا.

ـ هذه الكوفية عمرها سنوات طويلة، أحضرتها أمي من موسكو من أصدقائها الفلسطينيين، وأرتديها فقط في المناسبات العامة، شكل من أشكال التضامن وإبراز الهوية السياسية.

-3-

أنهت اليزابيل دراستها، تعمل الآن طبيبة في إحدى مستشفيات سنتياغو، ظلت شفتاها حتى الآن حارقتان ومعجونتان بماء نباتات برية وزهور بيتية وروائح حدائق سماوية، مشدودتان ورخويتان، آثمتان وصائمتان، متطلبتان وزاهدتان، لكن ذكرياتها صارت تبتعد رويداً رويداً، لم تعد تتذكر سنوات فتنتها الأولى في الجامعة، وخفت صوتها ونسيت جملاً كاملة من نشيد الشبيبة الشيوعية الذي غنته ليلة رأس السنة.

سنتياغو الآن هادئة، عصابات الأمن التي كانت تجول الشوارع باحثة عن أنفاس الحرية إنزوت، ومات الدكتاتور، وبقيت صور الليندي بالأبيض والأسود مطبوعة على قلوب مئات الآلاف من التشيليين.

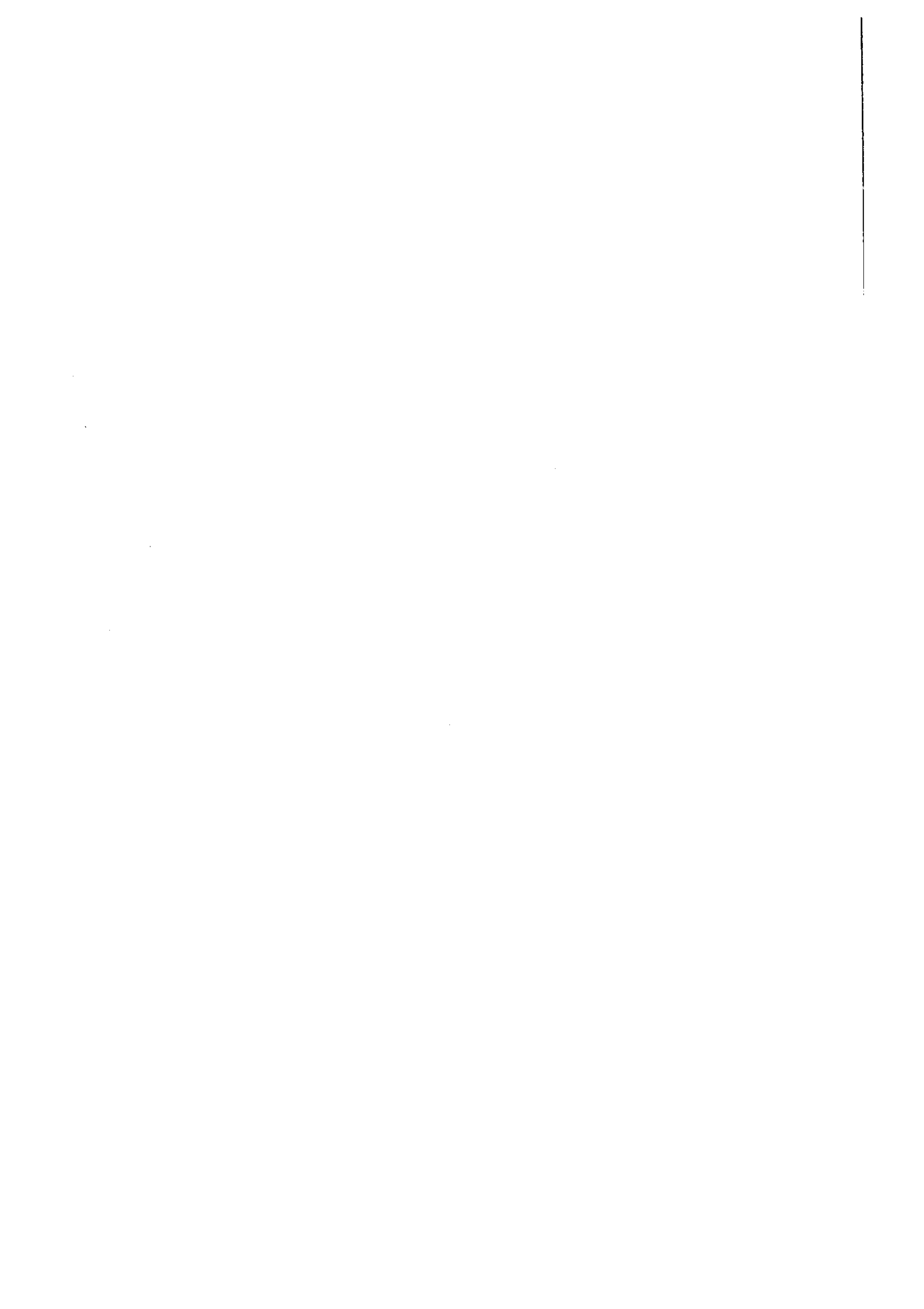
ظل الجنرال يمسك بأطراف الحياة، إلى أن أفلتت منه للمرة الأخيرة يوم العاشر من كانون أول عام 2006. لم يحاكم بينوشية أمام القضاء التشيلي، تملص الجنرال الذي تقطرت أطرافه وثيابه وخطواته بدم الضحايا وصرخات المفجوعين والمفقودين والمعذبين. بقيت صيحات المغدورين تطوف في شوارع سانتياغو باحثة عن الحرية، لذا طلب بينوشية في وصيته أن يحرق جثمانه، خوفاً من مطاردته إلى القبر.

لكن اليزابيل واظبت على الذهاب إلى اجتماع أهالي المفقودين والمذبوحين في عهد بينوشية، وفي كل عام تتطوع لمدة شهر في خدمة قرية نائية في التشيلي، تذهب هناك، وتسكن كيفما اتفق، وتقدم العلاج إلى المحتاجين، كانت هذه صلاتها التي واظبت عليها منذ تخرجها من كلية الطب. وفي داخلها، هناك في أبعد نقطة من الروح، تشعر أن والدها سعيد بها وهي تخدم أبناء شعبها المهمشين في أقصى الريف.

هناك، في القرى البعيدة عن العاصمة، جالست عجائز يحفظن أساطير بلادها الطويلة كريشة طائر حر، وحين تختلي بنفسها منتصف الليل، تطارد شذرات من ذكرياتها البعيدة، ولا تمسكها جيداً.

صار يهيأ لها، أن بنتاً أخرى كان اسمها اليزابيل مرت على موسكو، وعاشت فترة من الزمن قبل أن تقرر العودة إلى بلادها، وتنجب بنتاً

أسمتها تانيا، ولم يكن ليل اليزابيل يمضي دون أن تتساقط دمعات خفيفة على وجهها الذي أسر قبل سنوات طويلة قلوب الشعوب المقهورة والتواقة للحب.



الحقيقة

-1-

كنت أعرف غسان نصار جيداً. لكن لم نكن أصدقاء.

لم أكن أحب طريقته في التكتم على حياته الخاصة وكأنه يختلف عن الناس كلهم. ولسنوات طويلة اعتقدت أن الرجل ببساطة مغرور، دون أية أسباب معقولة. لكن حين جاءني شقيقه بعد وفاته بشهور، ليخبرني أن عائلته تفكر في نشر بعض النصوص المتروكة في شقته في بيت جالا، تعرفت عليه من جديد. أو بدأت التعرف عليه من جديد.

أبلغني شقيقه، أن غسان كان خجولاً جداً، مرتبكاً دائماً. ولم يكن يعرف حتى وفاته المفاجئة، حين سقط قلبه قبل أن يصل درجات بيت العائلة، ماذا يريد بالضبط، شعرت بتعاطف معه.

قال لي شقيقه: لم يكن يعرف ماذا يريد، يتصرف ببساطة، لدرجة أن الآخرين كانوا أيضاً يرتبكون معه، لأنه ينقل لهم ارتباكه وتوتره وخجله. إلا أن العائلة فكرت أنه قد يكون من الواجب عليها، أن تنشر ما كان يتخيله غسان نصار مذكرات أو مقتطفات من حياته.

فهمت أن من واجبي أن أسأل عن دار نشر فلسطينية قد تهتم بما كتبه غسان، من باب التعاطف أو ربما «يجدوا شيئاً في ما هو مكتوب»، كما

ختم كلامه لي.

عندما كنا صغاراً في المخيم، كان بيت غسان يضيق على من فيه، لكن كان من حظهم أن غرفة جانبية معزولة على الجهة الغربية من بيتهم كانت تعود لأحد أعمامه، ومنحها لغسان وإخوته كي يستفيدوا منها. هناك واظب غسان نصار على الجلوس يومياً لساعات طويلة في قراءة أدب الحرب السوفييتي، ومضى على نفس طريق أقاربه، وانتمى للحزب الشيوعي الفلسطيني، ربما لأنه لم يكن يعرف أية تنظيمات أخرى في المخيم.

أتذكر، حين كنا في الصف السادس الابتدائي، دخل الأستاذ فتحي حاملاً صحيفة، وقال أنه سيقرأ لنا قصيدة لشاعر اسمه معين بسيسو، وغمز بعينه مضيفاً: هذا الشاعر قريب لعائلة غسان نصار. في اليوم التالي سألت غسان عن علاقة عائلته بالشاعر، فقال: من نفس الحزب!

وحين انتهت دراسة الثانوية العامة، حصل على منحة دراسية في موسكو، ومكث هناك أكثر من ثماني سنوات، وبعد عودته وعمله في وزارة الشؤون الاجتماعية، كنت أراه في أحيان كثيرة يسير على طريق باب الزقاق باتجاه بيت جالا، ويعرج على دكان صغير يعرض مجلة «أخبار الأدب» المصرية، يشتريها ويواصل طريقه، استوقفته أكثر من مرة، وتبادلنا أحاديث المعارف، حول العمل والعائلة، ولم يبد ولا مرة في الحديث معي، أية اهتمامات أدبية. لذا لم أكن متأكداً مما قاله شقيقه.

ظننت الأمر لا يعدو أن يكون مجرد خواطر كتبها، في وحدته. كانت

الأوراق كلها مكتوبة بضمير الغائب.

اللقاء الثاني مع شقيقه، كان في شقة غسان نفسها، وأكثر ما لفت انتباهي قصاصات الورق الصغيرة، المكتوبة بخط صبياني وبلسان امرأة، وصور قديمة تحت ندف الثلج في موسكو مع أشخاص مختلفين، إلا أن صورتان ظلتا تردان الى ذاكرتي، صورته مع بنت ترتدي معطف بني وتحمل حقيبة واسعة وشال يميل لونه للأخضر، أمام جدار الكرملين، وصورته في حفل تخرج على ما يبدو، مع أشخاص كثيرين ومن جنسيات مختلفة.

هل يمكن أن يتخيل الإنسان نفسه مفضوحاً أمام الآخرين بمجرد وفاته؟

هل يحق للآخرين أن ينبشوا في عالمه دون اعتبار ذلك تلصصاً وقحاً؟ أليس المفترض حرق كل ما يتعلق بالإنسان بعد وفاته، دون الإطلاع على شيء؟

أخبرني شقيقه حين شعر بانزعاجي من تفتيش الأوراق وترددي في ذلك، أنه قام بنفسه بعد وفاة غسان بتصفح جميع الأوراق، وأنه لم يجد شيئاً خارج عن المألوف أو العادي أو يستوجب السرية مثلاً؟

قلت لشقيقه بصوت هادئ وواثق: بصراحة، لم تكن علاقتي مع غسان علاقة صداقة عميقة، هي أقرب لعلاقات المعارف، وصحيح أني أهتم بالقراءة والأدب، لكن ما هو موجود بين الأوراق يشبه يوميات شخصية، وجزء منها يتحدث عن علاقات حميمية لغسان، وأخاف أن

أقرر في مصيرها، لأني لم أكن أعلم لماذا كتب كل هذه الأوراق.

على ورقة بيضاء كلمات مكتوبة بخط يد أنثوي، لا يشبه خطه، لكنه طفولي ومشاكس، لفتت أنتباهي، قرأت ثلاثة أسطر:

«يا ريت الريح اذا أنتا نسيت حبيبي أول الخريف وما جيت
ينساها الحور وقمرها يغيب وليلا يطول
ونبقى حبيبي غريبي وغريب أنا وأيلول».

شعرت بخيبة أمل على وجه شقيقه، خجلت منه. ولا أخفي أن إحساساً خفياً تسلل لي بالرغبة في الإطلاع على جزء من سيرة حياة إنسان مضى إلى العالم الآخر، ولم أكن مستقراً على موقف منه.

حتى يمكنني القول أني كنت أحياناً أكره فيه بعض السلوكيات، أو للدقة لم تكن تعجبني أو أستطيع تفسيرها. وحدث مرة، بعد عودته من موسكو أن سألته عن حياته في الغربة، فأجاب بأنه لا يتذكر تفاصيل، ويشعر أن الأيام مضت بسرعة، وأجاب بعموميات يعرفها كل البشر عن موسكو: في ثلج كثير في الشتاء هناك، من شهر اكتوبر حتى مطلع نيسان، لكن الشعب الروسي شعب طيب، وسكت.

أخرجت مع شقيقه سبعمائة وثلاث وعشرين ورقة، واخترنا منها الأوراق المطبوعة هنا، حاولت أن أستثني الأوراق التي يتحدث فيها عن نفسه بقوة، واصفاً حاله بأنه لا يعدو أن يكون جباناً، لأنه لم يستطع أن يتخذ قرارات في مختلف مراحل حياته. وأنه يعيش على هامش الحياة، ويدّعي أكثر مما تحتمله الحقيقة. ويصر على أن يسمي نفسه عجوزاً.

لا أبرئ نفسي من التدخل في اختيار الورق، ورفضت باصرار 43 صفحة بذل شقيقه جهداً كبيراً في اقناعي بضمها إلى الأوراق المطبوعة، شعرت أنه من غير المعقول أن تكون نتيجة طبع هذه الأوراق، ترك انطباع خاطيء عند من يقرأها، مثل الورقة التي تحدث فيها عن ليال كان يرفض فيها الذهاب إلى الحمام للتبول، فيستخدم زجاجة كولا فارغة ليبول فيها، ثم يسكب بوله من النافذة، ولا يعرف حسب ما كتب لم كان يقوم بفعل كهذا، وأي جنون كان ينتابه ليقوم بهذا الفعل الشاذ؟

كما أن شقيقه، سألني أكثر من مرة حول إحدى الصفحات التي يتحدث فيها غسان طويلاً عن هوسه في شم رائحة إبط مريم، سألني إن كان هذا هو «الأدب الحديث» الذي يكتبه الشباب الآن أم لا؟ لأنه لم يكن ليصدق أن أخيه قضى ليال طويلة واضعاً أنفه تحت إبط البنت اللبنانية ليشم رائحة جسدها، في بيت الرائحة النظيفة، كما جاء في كتاباته.

أوراق مثل هذه، رفضت إدراجها الآن، وهي كثيرة.

من الأوراق الصعبة، التي بقيت محفوظة دون إدراج في أي مكان، تلك الخواطر والحوارات التي دارت بينه وبين مريم حول علاقتهما الجنسية في السنة الأخيرة، يبدو مما كتبه أنها أبلغته بشكل واضح لا لبس فيه، إنها لا تستمتع معه بممارسة الجنس!! قالت له: «بصراحة، ودون غضب، أنا لا أستمتع معك جنسياً، أنا أحبك، ولأني أحترمك أقول لك ذلك، أنت عجول لدرجة تثير استفزازي، وتتركني في حالة رثة، حتى صرت أتملص من محاولاتك للنوم معي».

آثرت أن لا أنشر ذلك أيضاً.

لكن، ربما، لم تجر الأمور على هذا النحو تماماً، كما كتب في أوراقه، لم يتحول إلى عجوز بعد، وربما لم تكن تلك الخواطر التي تجيئه على الجسر المهترئ، سوى أوهام يستدعيها، كي لا يتذكر ما حدث فعلاً.

أراد ربما، حين قرر التوجه نحو الجسر، أن يجتاز حياة أخفق فيها حتى الآن، حاول تشكيلها وفق هواه ورغباته، كي يبرر لنفسه كل هذه الاخفاقات المتتالية في علاقته مع نفسه ومع الآخرين.

أدرك أيضاً، أنه لا يعرف السبب.

ربما لم يكن محط اهتمام أو تقدير كما أحب أن يتخيل.

في إحدى الأوراق التي آثرت أن لا تنشر، كان سؤالاً قد كتبه غسان بخط عريض يوجهه إلى نفسه: إن كان ثمن كتابة قصة يستحق هذا العناء، والكذب وتبديل الحقائق؟

وفي هوامش بعض الصفحات، بين أقواس صغيرة كان يحاول الإجابة على سؤال إن كانت مريم قد قالت له أنها ستتركه؟

لا يعرف، أو لا يريد أن يعرف.

أما رسائل مونتريال فهي الحقيقة التي أراد أن يتمسك بها، كي يحتمل الدوام الوظيفي في مديرية الشؤون.

وللتأكد من بعض التفاصيل، ذهبت إلى مقر حزب الشعب الفلسطيني (الشيوعي سابقاً) في بيت لحم، كان المقر في الطابق الثاني من عمارة تقابل مديرية التربية والتعليم، كان يجلس خلف الطاولة شاب في الثلاثين،

رحب بي، وكأني ذاهب في زيارة عائلية، قدم لي قهوة في فنجان بلاستيكي أبيض، خلف المكتب صور لبشير البرغوثي وسليمان النجاب، وفوق النافذة صورة لشاب يحمل بندقية اسمه عمر شحادة، حسب الملصق فقد استشهد يوم اجتياح مدينة بيت لحم مطلع نيسان 2002.

سألته عن غسان نصار، وهل قام الحزب بتأبينه، إلا أن الشاب توجس من السؤال، وطلب مني ايضاح السبب حول أسئلتي، وسألني إن كنت على علاقة مع غسان؟

أبلغته باختصار عن الكتاب.

قال: لا أعرف عنه الكثير، لكنه حضر إلى مكتب الحزب عدداً من المرات بعد أن عاد من الاتحاد السوفييتي، شارك معنا في انتخابات 2006 أيضاً، وهذا كل شيء.

ثم أضاف:

أعتقد أنه انتخب مدة عام في قيادة الحزب في المدينة بعد عودته من الدراسة، لكنه آثر بعد ذلك الإبتعاد، وحين سألناه عن السبب، قال أن علاقته مع الحزب، هي أشبه بالعلاقة العاطفية، لا أكثر.

وجدت بين أوراقه رسالة طويلة، من سبع صفحات باللغة الاسبانية، لم أفهم منها شيئاً، مكتوبة بخط اليد، يبدو أنها تعود لعام 1997، وعلى ظرف الرسالة رقم صندوق بريد 735، كانت الرسالة باسم اليزابيل، هذا ما استطعت قراءته بالأحرف اللاتينية، وتساءلت بيني وبين نفسي لِمَ تكتب له باللغة الاسبانية؟ يبدو أن اليزابيل أرادت منه أن يبحث عن

مترجم، أو أنها لم تستطع أن تعبر له عما تريده بغير لغتها الأم، وتركت له مهمة البحث عن الترجمة، وهنا تذكرت ما كتبه عن فيلم «ضاع في الترجمة»، لجوهانسون، حاولت الربط بين حبه لتلك الممثلة والرسالة الإسبانية، لكن دون جدوى. ربما لم يترجم الرسالة بالمرة.

-2-

قبل أن أتخذ القرار النهائي حول نشر الأوراق، قررت أن ألتقي محمد في رام الله، صديقه حسب الأوراق، يحمل لحية كثيفة وملونة بالأبيض والأحمر، هادئ لدرجة مستفزة، ولا يتحدث كثيراً، إلا أن جمله القصيرة تجيء أحياناً مباشرة ومكثفة وتقول أشياء كثيرة دفعة واحدة. قال: ممتع أن تجلس مع غسان لساعات، كي تستمع إلى حكايا وأساطير وخرافات وأحلام كلها في النهاية لا تتحقق، وأنا أحب الأشياء الناقصة، وهو كان مليئاً بأحلام خاسرة بالضرورة. قضيت معه أيام منع التجول في رام الله، باستثناء أيام ذهب فيها إلى إحدى معارفه، وغاب عدة ليالي، وحين إلتقيته أعطاني نصاً أدبياً ما زلت أحتفظ به للآن، إسمه تجريب على الاجتياح، مدلي محمد ورقتين، وقرأتها فيما كان يعد القهوة:

«قالت لي:

لم يدخل رجل هنا من قبل،

لكني أدخلتهم كلهم عنوةً مستعينةً بالخيال، دثرتهم وعريتهم عشرات المرات، أحاليلهم الطويلة والقصيرة والعريضة والرفيعة،

الروائح السرية التي تظهر حين يخلعون سراويلهم، الحارة والباردة والثخينة والخفيفة والحادة والتافهة والأليفة والوسخة، وروائح أخرى.

أفكارهم بين يدي، وبقليل من رذاذ العسل اللزج السائل ما بين فخذي، كنت أعجنها، وأصنع منها قطعاً ورقيةً ناعمة لاستعمال التواليت.

وكنت عندما يستعدون للولوج أذكرهم بأخواتهم وأمهاتهم وزوجاتهم، فينتفضون.

أحب أن أعلقهم على مشاجب الوهم، الذين تركوا الخندق إلى سرير المخيلة، عطلتهم عن إطلاق النار، بللت أسلحتهم، وأيقظت فيهم ذئاباً لا تنام حين تشم رائحة السرو وغواية بيوت اللحم المتهدلة خلف سروال الجينز المشدود.



كانت دبابات الميركفا تحت الشباك، فأردت لها أن تسكت.

لم أستخدم الكلاشينكوف من قبل، بيد أنني أتحسسه الآن، ما الذي تفعله الرصاصة في جسد دبابة هائلة مثل الميركفا؟ لا أعرف.

الرصاصة اللحمية في جسد المرأة تخلق عالماً جديداً، أولاداً وبناتاً، سيموتون بالضرورة إن أطل أحدهم من الشباك، أيضاً، ليس ثمة من فعل آخر هنا، الموت والحياة لصيقان يتألمان ككلبين مشدودين لبعضهما تحت أشجار الخوخ، بعد أن رشقهما الأولاد بالحجارة حين كان يطأها ولسانه يلهج بلذة الحيوان الأولى.



واختلفنا،

وليس في العتمة الممتدة ما بين بطنها وفمي سوى الهواء الحار، تبادلنا شتائم خفيفة، كنت أرغب بأن ألقي قبضة يدي على الطاولة، تيمناً بالغضبانين الذين نشاهدهم في التلفزيون، إلا أن صوت الميركفا تحت الشباك ذكرني بالخطر.

قبل ساعات فقط كنت في الطابق السادس من بناية «الإسراء»، ما بين دوار المنارة ومبنى المقاطعة، حيث الرئيس ياسر عرفات، كنت أختبئ تحت طاولة المكتب حين يشتد القصف، وفي الساعة الخامسة وثلاثين دقيقة صباحاً تمكنت من الإفلات، وخرجت إلى صباح رام الله الدامي، لم يكن أحد في الخارج، فقط بعض الفتية المسلحين يحاولون وقف الإجتياح، وسيارة إسعاف منهكة عند مدخل مستشفى الرعاية.



تذكرت العناق اللذيذ والحميم، الرغبات الطائشة التي ترفع رأسها خلف بنطلون النوم (إسمه ترييننغ يا أستاذ، قالت)، لونها المائل إلى عتمة محببة حول بتلات الياسمينة، الشرايين السرية لعنقها، الشامات التي لا تُرى إلا باللسان، الجسد الناعم والناعم إلى منتهاه، هناك حيث شجرة القطن والجراح المتداوية والحارة كالفرن، فرن القيسي في المخيم، الذي دخلته بناء على طلب من أمي، النساء على الجنبات يحملن العجين، رائحة الأرغفة اللاهبة، الحجارة الملساء من كثرة الجلوس والاحتكاك، أشعر ذلك الدفء حتى الآن يتسلل إلى جسدي، أوراك النسوة الثقيلة

بثيابهن السوداء، ملفوفة ومغبرة بطحين أبيض، كانت الرغبة بالنوم على تراب الفرن الحار تحت أقدام النساء المتشحات بالأسود تأخذني وتشتد علي، ليتني غفوت مرة.»

-3-

أنا لا أعرف غسان نصار كما ينبغي، ربما.

أو بما يسمح لي بالتقرير عنه، بعد وفاته، لكني سألتزم بإرسال الأوراق التي اخترتها إلى شقيقه، وسأتحدث مع أية دار نشر، يمكن لها أن تساعد عائلة أرادت أن يساعدها الناس في الوصول إلى روح ابنها.

لا أستطيع الآن أن أقرر إن كانت الصفحات التي اخترتها من حياته، مقبولة، ولا تجرحه، أو تمس صورته لمن عرفه عن قرب، إن كان أصلاً قد حدث أن عرفه أحد عن قرب، فكيف يمكن للناس معرفة إنسان هو نفسه لم يستقر على معرفة ذاته، حتى فاجأه قلبه، وسقط عند أولى درجات بيت العائلة.

العجوز
يفكّر بأشياء صغيرة

وليد الشيخ



"لا يمنح الإنسان حياة ثانية، حياة يعيد فيها ترتيب الأشياء، أن يختار أصدقاءه وعمله وعلاقاته الجنسية وقراراته، ولا يجد إجابات شافية طوال عمره، في كل مرة عليه أن يقف على مجموعة احتمالات، وأن يختار، بنفسه، وأن يندم في كثير منها. لا تمنحه الحياة مفاتيحها إلا حين يوشك أن يغلق للمرة الأخيرة عينيه، لو قيض له أن يسمع صوت الموتى وهم في قبورهم، ما الذي سيقولونه، هل تنشغل السماء بتأوهاتهم وضجرهم الأبدي؟ ما الذي سيُطلبونه لو منحوا فرصة جديدة؟

سيطلبون وقتاً إضافياً، علماً أن الوقت كله كان بين أيديهم، وكانوا يرمونه بالأطنان، وهم يأكلون ويشربون ويتكاسلون كل صباح، وهم يتمطون أمام شاشات التلفزيون . وقت عظيم هدر وهم يشربون الشاي، ويلوكون سيرة أحدهم في غيابه.

يعرف أن الزمن لا يتكرر، ولا ينتهي، فقط يمر، دون رائحة، دون صوت، لكنه يمر.

يراه في تبدل ملامحه في المرآة، في صعوده الدرجات، في تجاعيد وجه الجدة الآتية من زكريا إلى المخيم، لتقول كل صباح في ما يشبه معزوفة عسكرية لدولة قديمة: يقطع هالعمر مر عالفاضي، مر واحنا نستنى!!"


ISBN 9957-09-510-2
9789957095109



تلفاكس 5522544 6 00962 ص.ب 950252 عمّان 11195 الأردن